

وقَاتَلْنَا بِالْغِنَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(١)، ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ﴾^(٢) قَاتَلْنَا، أَخْرَجُونَا مِنْ دِيَارِنَا، كَثُرَ بَيْنَنَا آيَاتُهُمْ، كَثُرَتْ أَرَامِلُ، قُتِلَ شِبَابٌ، وَذُلَّ شِبَابٌ، دُنِسَتْ أَعْرَاضٌ، وَلُطِّخَ شَرَفٌ، وَكَانَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا يَسِيرٌ كَافِيًا لِيَحْرَكَ أَوْ يَثِيرَ، يَكْفِي لَأَنْ نَهْضَ وَنَطْوِي فِرَاشَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ، يَكْفِي لِنَطْلُقَ مِلْدَاتِ الْأَجْسَادِ وَثَلَاثًا، وَنَهْجَرَ الْمَتَعَ، يَكْفِي لِنَقْفِ عَلَى الْأَرْجُلِ، وَنَجْحِظَ الْعْيُونَ الْحُمْرَ صَائِحِينَ: نَحْنُ هُنَا، يَكْفِي لَأَنْ نُسْمَعَ شُعُوبَ الْأَرْضِ كُلَّهَا أَصْوَاتِنَا صَارِخِينَ: لَنَا عِزَّةٌ، فِينَا نَخْوَةٌ، وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ مَنًا؟ لَيْتَ مَا كَانَ لَمْ يَكُنْ!، فَمَا عَمِلْنَا مَشْرَفًا، وَلَا صَنَعْنَا سَارًّا، لَقَدْ رَأَيْتَنَا «صَمَدْنَا»! وَنَاجِزْنَا عَدُوَّ اللَّهِ . . . «بِالْغِنَاءِ!»، نَابِذْنَاهُ «بِالرَّقْصِ!»، قَارَعْنَاهُ «بِالْعِزْفِ!» نَازَلْنَاهُ «بِالطَّبْلِ!»، نَاهَضْنَاهُ «بِالْمِزْمَارِ!»، وَأَخِيرْنَا، وَيَا لِلْسُخْرِيَةِ الْمَرْءِ، عَارَكْنَاهُ «بِالدَّفُوفِ!» الْعَرَبِيَّةِ! الْعَرَبِيَّةُ!!، فِقَاسِينَا فِتْنًا صَمَاءَ عَمِيَاءَ كَمَوْجِ بَحْرِ لَجِيٍّ أَسْوَدَ، وَكَقِطْعِ لَيْلٍ مُظْلِمٍ رَهِيْبٍ.

مثل هذا رآه شاعرنا العظم، رأى أمتنا تقاتل وتدافع وتصون وتثار. . . بالكلام:

تَعَسَّتْ أُمَّةٌ تُدِيرُ رَحَى الْحَرْبِ كَلَامًا وَمَنْطِقًا وَلِسَانًا^(٣)

وهل يُجدي لسان أمام سنان؟ هل ينفع خطاب أمام رشاش؟:

أَحْدِيثُ اللَّسَانِ يُجْدِي وَيَنْفَعُ

وَحْدِيثُ الْعَدُوِّ سَيْفٌ وَمَدْفَعٌ؟

وَدَوِيُّ الرَّشَاشِ يُسْمَعُ فِي الْكُونِ

وَقَوْلُ الْخَطِيبِ مَا عَادَ يُسْمَعُ^(٤)

(٢) البقرة ١٩١.

(١) التوبة ١٢٣.

(٤) المكان السابق.

(٣) ص ٨٥.

لقد حوى ديوانه «في رحاب الأقصى» مجموعة شعرية أطلق عليها اسم «فن وإعلام واستسلام»^(١) صدّرها بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٢) ومهد لها بهذه الكلمات الموجعة:

على طريق الاستسلام . . . فن وإعلام!

من الخماس من حزيران الكارثة

والزيادة مضطردة:

في الخلافات العربية . . . والزعامات الحزبية!

في الآراء المطروحة . . . والحلول المفضوحة!

في الصحف المأجورة . . . والاذاعات المسعورة!

في مقاصف الخمر، ونوادي الضمار، وعلب الليل، وبنات الهوى!

والأمة في ضياع: تؤله الطغاة، وتستمرىء المأساة!

تكوى بنار الذل، وتغوص في وحل المهانة! . . .

من وحي ذلك كله كانت هذه «المجموعة الشعرية» . . .

في الفن . . . والاعلام . . . والاستسلام!!!

بدأ شاعرنا مجموعته الشعرية هذه بأبيات عنوانها «أنغني للهوى . . . في

مأتم»، مهد لها يقول:

«انطلق الصوت» يغني للهوى . . . والليل . . . والحرمان!، وحملت

شاشة التلفاز الصغيرة مشهد صبايا يتمايلن، وفي أيديهن دفوف ولا حرب . . .

وسيوف ولا جهاد! فكانت هذه الومضة الشعرية في دروب الظلام! قال:

نحن يا فيروز ما عاد لنا

أذن تهفو ولحن تحن

كل ما فينا جراح ودم

نازف من كبِدِ حرى تن

(١) ص ١٨٢ وما بعدها.

(٢) الأنفال ٣٦.

إنما تطرب أذن حرة
إنما يسعد قلب مطمئن
أنغني للهوى في ماتم
ولنا من دمننا كأس ودن
وسيف الحرب لا نصقلها
وسيف الرقص للرقص تسن
وطبول الحرب لا نقرعها
وطبول «الفن» في الساح مجن^(١)

وقارىء أبيات شاعرنا يحس ما اعتمل في نفسه من ألم لما نحن فيه، فليتأمل قوله «ما عاد لنا أذن تهفو وللحن تحن» و«كل ما فينا جراح» ودم نازف «من كبد حرى تثن»، ولنا «من دمننا كأس ودن»، فسيقول القارىء: «ما أكثر ما يأسى شاعرنا لما يرى ويسمع!!»، جماهير الأمة تعبت وتلهو، وكأنها في سؤدد وعز، وكأننا مبشرون بجنات، فأمناً ورضينا وفرحنا!!، يرى الشباب - عدّة الوطن وعتاده - يرددون أغاني فيروز وغيرها، يتمايلون بخفة وطيش، ولو عقلوا لبكوا دماً بدل الدمع، لو عقلوا لذابوا حياءً كما يذوب السمن، ولو عقلوا لا استبدلوا بالضحك العويل، ولكن... هيهات هيهات.

أمّا القصيدة الثانية في المجموعة الشعرية فسماها «من وحي الأذان، أمس... واليوم!»^(٢)

مهّد لها يقول: انطلق الأذان عبر الأثير يهزّ المشاعر ويحرك الوجدان... وقبل أن أعود من آفاق الأقصى السليب في سبحة أثيرية خاطفة... عاد المذيع العربي بعد الأذان يعلن عن أغنية يرددها ماجن من الفارغين: أو كنت لي ذنباً سألت ألا يغفره! فانساب القلم على صفحة الورق... مرارة وحسرة وأسى، وأنا أذكر «صوتاً» آخر كان ينعي للأمة العربية كرامتها وهو يعلن أهداف الحياة لأجيالنا! الدنيا... سيجارة وكاس!.

من أبياتها:

(١) ص ١٨٦ .

(٢) ص ١٨٨ وما بعدها .

كان لحنُ الحياة فينا أذاناً
يتغنّى به الأبساء الصيد
يملاون الوجود برأً ونوراً
حين يصحو على الأذان الوجود
وإذا اللحن صيحة من رفيع
وإذا الترس في المعامع «عود»
فغدت أمّتي مع «اللحن» سكري
يرسل «اللحن» فاجرٌ عرييد

الله الله !!، كان اللحن أذاناً فصار عوداً ولحناً!!، كُنّا أحياء فبتنا كأموات،
وإن كان بنا حراك، لم تُعد حواسنا تعمل، عيونٌ محملقة لكنها لا تبصر، وآذانٌ
مشرّعة أبوابها ولكنها لا تسمع، حتى عقول لا تعمل، ويح أمّتنا، باتت تأمر
بالمنكر وتنهى عن المعروف!، فغدت رذيلةً هيّنة، وأضحّت لقمةً للأكليين،
باتت أضحوكة الأمم، كان شعارها الأخاذ «الله أكبر»، لكنها استبدلت الأذنى
بالذي هو خير، تاجرت برذائل سموها «فنونا»، عليها «تقوم!» ليلها، وعليها
تفيق، بها تتسلّى، وماكرون حاقدون... يرقبون.

شاعرنا - جزأه الله أفضل ما يجازي - وهو من أفضاذا قادة فكرها، وأعلام
أدبها، صور هذه الحقيقة المرّة، فأجاد وأجاد، وأشعر بما شعر، وذلكم هو
الشاعر الشاعر.

منّ منّا - نحن جيل هزيمة حزيران -، جيل ضياع الأقصى، جيل القنطرة
والقنيطرة، جيل جيل الشيخ وشرم الشيخ، جيل مسعدة الجولان، جيل الضفة
الحزينة، وغزة هاشم الجريحة، وعرين العريش المهين، لا يذكر «أحمد
سعيد»؟ وهل من عربي يجهل «أحمد سعيد؟» ذلك السعيد التعيس، المذيع
المعروف، الذي «زرع البحر بطيحاً وقثاة»!، سمعناه قبيل اعلان سقوط «البقية
الباقية»، وزميلتيها الأختين سيناء وجولان، سمعناه «يُطمئن!» العرب الذين
استقوا أبناءهم «الصادقة!» من مدياعه «العتيد!»، صوت «ال...»، سمعناه
سمعناه «يزمجرا!» وكأنه أسد أسد، وإذا به قطة، معذرة لا أريد ثناءً عليه، فلربّما

استأسدت قطة هوجمت، أستغفرك ربِّي استغفاراً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، تذكّرتُ يا ربّ نهيك الزاجر: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾، تُبتُ إليك، فقد كان أحمد سعيد رجلاً، أعني ذكراً لا رجلاً، فليس كلُّ ذكّرٍ رجلاً، لكنه خاطبنا وكأننا أعنام!، سمعناه يقول والمعركة على أشدها: بُشرى يا عرب، بُشرى يا عرب، فُخيلَ الينا أن نصراً حاسماً حقّقناه، كنتُ يومها أستعدُّ لزواج، قلت: لعلني أقضي عرساً هنيئاً في الناصرة أو حيفا، وكم كانت الصدمة موجعة، حين سمعتُ بشارته تقول: «أم كلثوم معكم في المعركة!»، «شادية تقاتل معكم!»، «فايدة كامل تناضل إلى جانبكم» فانهزمتنا وانهزمتنا، وتقابلتُ مع عروسي على الجسر المتهدم، وكان عرساً مشعباً بمرار الذل، لم تمسسه حلوةٌ لولا إيمان، صمّد كقلعةٍ عزَّ قهرها.

مثل هذه «التمثيلات» أو «المسرحيات» أو «الضحكات» التي يعوزها شرف، لا يجهلها حتى الصبيان، فأنتي لمعلم جيل، رائد فِكْر، حامل عقيدة كشاعرنا أن يجهلها!، يقول:

مسخو الحق والحقيقة لَمَّا

صار صوتُ الاعلام فيهم «سعيد»

يزرع البحر والهواء وعوداً

لا يبالي ألا يكون حصيد

شرعة الزور والضلال «مذيعاً»

إن يوم الهوان والذل عيد^(١)

وقلّبتنا الحق، وحرّفنا الحقيقة، وعبدنا عصبية واطليميات من دون الله، ولكن ربنا سبحانه ما زال يُنعم علينا بخير كثير، ازاء هذا، وبقلبٍ ينفطر ألماً ولوعةً، لا يسعني غير أن أقول: أقسم بالله أن الله رحيم، أقسم بالرحمن أن الرحمن رحمن، وأقسم باللطيف أن اللطيف حقاً لطيف.

(١) ص ١٩٠ و ١٩١.

كيف لا يألم شاعرنا، وهو يقرأ خبيراً يضحك ويبكي، يقول الخبر: «منحت دولة عربية غانية مزوجة وما جنة لعوباً لقب فارس... وقلدتها في حفل رسمي ضمّ القادة والسادة... . . أرفع وسام!»، بهذا الخبر المضحك المبكي قدم لقصيدته «اللعب الفارس»^(١) التي قال فيها:

ويُح قومي ما للعب تباهت
وغدّت فارساً بغير حسام
تهادى بين المعازف نشوى
وعلى ثغرها هزيل ابتسام
وتغني لليل والخمر سكرى
وتباهي أترابها بوسام
يا بلاداً عزّ الفوارس فيها
وخلا سآحها من الضرغام
من تولّى فرسانها عن حماها
وتباروا في ساحة الآثام
تخذ الذلّ من عرينك داراً
بعد أن كان موطناً للكرام
واستبدّ البغاث في ذروة النسر
وقاد الأسود سربُ النعام
قالوا «بطلة» وهي ساقطة، قالوا «أذكت» في الشباب روح جنديّة، وهي أماتت الشهامة، وقتلت الحماس، وقالوا هي «فنانة»، وهي خليعة.
وكيف لقلب شاعر مسلم يغار على دين الله، وحمى إسلامه، فلا ينفطر
ألماً حين يرى «غانية» تقود أمتنا لحرب:
تقود أمتنا للحرب غانية
والجيش في الزحف قد ألّهته مغناة

(١) ص ١٩٢ وما بعدها.

وكم لِعُوبٍ تهاووا عند أَرْجُلِهَا
كما تهاوت على نارِ فراشات
الزُّقِّ والرقِّ والمزمأرُ عُدَّتْنا
والخصمُ عُدَّتْه عِلْمٌ وآلات^(١)

هذه أم كلثوم لن أعرف قارئاً عليها، فلا أظن عربياً يجهد «أفضالها!»، قالوا
انها «كوكب شرق!»، قالوا انها «ظاهرة فنية عجيبة»، قالوا: إن حبَّ العرب لها
يوازي حبَّهم لفلسطين، أما «الدكاترة!» زكي مبارك فقال في موازنته انها «ريحانة
هذا العصر!»، أما الدكتور زكي الشيخ فقال في «كرباله» إنها «مصيبة العصر»،
ويقول في كتابه هذا هي خضراء دمنة، أما شاعرنا العظم فرأى أنها «ظاهرة
تخديرية رهيبية»، لا عَرَوْا أن ذهب شاعرنا هذا المذهب، فهو يدرك «اللعبة» التي
أحكمت لتخدير الشباب، وهامي قصيدته «خدريهم يا كوكب الشرق»^(٢) في
تلك العجوز التي كان في موتها عبرة لمن هام بفنها، العجوز التي أماتها المميت
الذي لا يموت... «وبالتقسيت»، عضواً عضواً، علل أدعياء الفن الخنوعين
يعتبرون، قال فيها:

«كوكب الشرق» لا تدويي غراماً
ودلالاً وحرقة وهياما
لا ولا تنفسي الضياع قصيداً
عبقرياً أو ترسلي الأنغاما
فدماء الأحباب في كل بيت
تنزى وتبعث الألاما
وجراح «الأقصى» جراح الثكالي
ودموع «الأقصى» دموع اليتامى
وأني الكمان صار أذاناً
في حمى البيت والنديم إماما

(٢) ص ٢١٣.

(١) ص ٢٠٢.

وإذا «ليلتني وحلم حياتي»^(١)
 لم نحطم في فجرها الأصناما
 لم تغني يوم التشرد حزناً
 لا ولم تدخلي علينا الخياما
 فلسطين لا تحبُّ السكاري
 ورُبي القدس لا تريد النياما
 «كوكب الشرق» ضاع قومي لَمَّا
 تاه في حبك القطيع وهاماً
 قد أطاعوا الهوى فضلتُ دروبُ
 سلكوها وقد أباحوا الحراما
 منحوك الإعجاب يا وبع قومي
 وعلى الصدر علقوك وساماً
 ناوليهم من راحتك كؤوساً
 وامنحهم من ناظريك ابتساماً

وغنتها «كوكب شرقنا!» بعد مصيبة حزيران، ولسان حالها يقول: «هذه
 ليلتي» التي طالما كنت أرقبها وأتمناها!، «هذه ليلتي» التي ضاع فيها ما كان
 باقياً من فلسطين!، «هذه ليلتي» التي أسرف فيها الأقصى!، و«هذه ليلتي» احتلت
 فيها قدس الإسلام، انها ليلتي «وحلم حياتي»! وكيف لا تكون ليلتها وحلم
 حياتها، وهي كارثة جعلت كثيرين من كارهي أمة الإسلام، الحاقدين على ملّة
 الايمان، الشائنين لغة القرآن، يُظهرون كرمًا ولا كرمَ حاتم، وأحيوا ليالي حمراء
 صاحبة ماجنة، على روابٍ وشواطئ، وذبحوا خرافاً ابتهاجاً بالهزيمة!، واستمر
 سمرهم حتى لاحت تباشير الصباح، لقد والله أظهِروا شماتة فاقت شماتة
 «ديان»، حين «استردنا!!» القدس الشريف وقال: عُدنا!!! .

لشد ما يؤلم، أن رأينا شباباً اتخذوا من أغاني الميوعة ملاذاً ومهرباً ممّا

يلاقون من ضنك في حياتهم، مردُّه البُعْدُ عن الله، ظنوا ذلك يُنسيهم الشقاء، ورددوا أغاني أم كلثوم، أو غيرها من «فَنانات!!» العصر، وملاؤا البيوت بالتسجيلات، واقتنوا أجهزة اللهو والدمار، التي جادت بها قرائح العلماء، ولكنهم زيدوا شقاءً فوق شقاء، فالسعادة التي لها فيها سعادةُ قشور، سعادةُ لذةٍ سطحية عابرة، تُخفي تحتها الأضغان والهموم، بخلاف سعادة مَنْ أنار الله قلبه بنور من إيمان، ينظر إلى هؤلاء الضائعين من محرابِ إيماني رفيعٍ، نظرةً شزر، ولكنها تحمل في طياتها دعاءً إلى الهادي العظيم، أن يلهمهم سبيل الرشاد، ليعودوا صالحين، نافعين، مهتدين، سلاحهم القرآن، ونبيدهم الذي به يهيمون كلام الله سبحانه:

أرْتَلُ الذِّكْرَ عَلَّ الذِّكْرَ يَحْفَظُنِي

من الخطايا ويحميني ويرعاني^(١)

الله الله! «أرْتَلُ الذِّكْرَ»، «عَلَّ الذِّكْرَ يَحْفَظُنِي»، ما أجمل أن يكلم العبدُ ربَّه!، بل ما أجمل أن يكلم الربُّ عبده!، ذلك هو «ترتيل الذكر»، فما «الذكر» إلا كلام الله، فيه تقرُّ الأنفس، وبه تقرُّ القلوب وتطمئن.

شعر المناسبات بين الرضى والقبول

معلوم أن دعاة التجديد في أدبنا الحديث، شنوا حرباً - وبلا هوادة - على شعر المناسبات الاجتماعية، حتى أن شعراء «الديوان» أطلقوا على شوقي اسم شاعر المناسبات، ولنا ازاء هذا النوع من الشعر موقف، يتلخّص في أن هذا الضرب من الشعر انما يكون رذيلاً، حين لا يعبر الشاعر عما يشعر، وبمعنى آخر، حين يحسّ بشيء فيقول غيره، أي حين يتكلّف ما لا يعتدل في النفس، وما لا يجول في خاطر، فمديحه تكسب، وهجاؤه تزلف، ورثاؤه تقرب، أما اشادته بمشروع من المشاريع، فأرضاء لأولي الأمر، القائمين عليه، أما تغنيّه بمناسبات الوطن، فلكي يقال إنه ذو شعور وطني، مهتم بقضايا بلده، أو مصير أمته، مثل هذا الشعور رذيل حقاً، فناظمه يقرّ في نفسه أنه مخادع، ومتخذ من فنه سبيلاً لشهرة آنية، أو مجدّ رخيص، ولكن، هل كل مادح ينافق؟ هل كل راث يخادع؟ هل كل هاج يتزلف؟ .

لا، بل ألف لا، ولو كان الأمر كذلك لنفينا عن خلق الله سجيّتهم البشرية، فالإنسان بطبعه يحب ويكره، ينجذب أو ينفّر، ويتأثر ويألم، فإن ألم حدث، أو نزلت نازلة، وتحركت عواطف الأديب من داخله، فتفتحت عيون ملكته، واستثيرت همم موهبته، فنظقت ذلك أدباً حياً معبراً صادقاً ناطقاً، فاعلم أن الشاعر شاعر فذ مرهف حسّ، متقد شعور، حادّ بصر، حيّ بصيرة، وإلّا، فاعلم أنه في قبور الأحياء، ومن الأحياء الأموات، وان كان لا يشعر.

والمتصفح لأشعار شاعرنا العظم يجد له شعر مناسبات، ولكنها مناسبات جُبلت بالدم، دم المسلم الذي يغار على دين الأمة وكرامتها، وجدناه يألم في مواقف ألم، ويتحسّر في مواقف تحسّر، بل ويبكي حيث البكاء إحساس ورحمة، وعدم البكاء جفوة وقسوة، وجدناه يمتدح ما لا تُحجب مآثره، ويرثي من شاد بنضاله أو بره صرحاً لا يُجحد، أما هجاؤه فهجاء أفعال لا أشخاص، هجاء أفعال نبذها الدين، وحذر منها قائد الأمة عليه السلام، شاعرنا أحسن

التعبير عن الشعور، وشعرَ بما يعاني أخوةً في العقيدة، فأشعرَ قارئَ شِعْرِهِ بما جالَ في الخاطر، ودارَ في الخلد، هذه معركةُ الكرامة، التي أحسَّ فيها المسلم حقاً بكرامة، بعد ذلّةٍ كادت تقتل، أنى لها ألا تحرك أوتار قلبه، الذي يتوثب لاستعادة كرامة أمة القرآن، فوجدناه يقول:

عانقَ الموت في رحاب الكرامه
وسقى المجد من دماء «النشامة»
من ضفاف الأردن شرقاً وغرباً
زاكيات كالمسك تروي رغامه
وحدةً بالدم الزكيّ تجلّت
وإخاء لم ينقضوا إبرامه
كلُّ مَنْ رام صفناً بشتاتٍ
سوف يلقي والله مُرَّ الندامة
يا شهيداً مضمخاً بدماءٍ
زانك الجرح في جبينك شامة
وعلى الرغم من جراح الضحايا
لم يلنْ عزمه ولم يُحنْ هامة
عمريُّ الأمجاد غير جزوعٍ
فيه عزمٌ من خالدٍ وأسامة
يصنع الموت أو يخوض المنايا
وعلى ثغره الوضيء ابتسامه^(١)

وهذه ذكرى الشهيد منصور كريشان، الذي كان في قلبه حرقه، وفي عينيه إلى الشهادة شوق، فشاء الله أن ينال ما تمنى، ففاز بما أحب، فرثاه شاعرنا، وحقاً لكريشان أن يُرثى، فهو شهيدٌ وكفى، وهو «كان يحسن السجود لله، والشموخ في حومة الوغى، حتى لقي ربه راضياً مرضياً، قال شاعرنا فيه:

(١) ص ٢٥ و ٢٦.

سال من جرحه دماء زكيّة
وعلى الشغربسمة علويّة
وجراح الشهيد تكتب بالفخر
سظوراً من عزّة وحميّة
لا يبالي الردى، ويهزأ بالنار
وإن كان في لظاها المنية
قطع العهد أن يموت شهيداً
أو يعود الأقصى ويمحو الدنيّة
ذاك «منصورنا» به نتباهي
فلتفاخر به معان الأبّيّة
وليفاجر به رفاق سلاح
وكفاح وساحة عربيّة
زانه من هدى الكتاب جلال
واعتصامُ بآيةٍ قدسيّة^(١)
وهلّ شهيداً كان قد:

قطع العهد أن يموت شهيداً
أو يعود الأقصى ويمحو الدنيّة
لا يستحق رثاء!! وهلّ من:

زانه من هدى الكتاب جلال
واعتصامُ بآيةٍ قدسية
لا يُرثي!!

إنه رمزُ كرامة، وسليلُ ايمان، ونبعُ شهامة، إنه من رفقةٍ أختيارٍ لبوا نداء الله،
فوجب على مَنْ خَلَقَهُ أن يقضي حَقَّهُ، وكما قال شوقي:

(١) ص ٣٢ و ٣٣.

يا أيها الدمعُ الوفيُّ بدارِ
تَفْضِي حَقوقَ الرَفقةِ الأَخيارِ^(١)

وهذه ذكرى شهيد آخر، هو الشهيد المجاهد القاضي محمد محمود الزبيرى رحمه الله، وهو من اليمين، نعم من اليمين، لا من معان ولا من الأردن، زارها الشاعر فحقَّ عليه أن يذكر الشهيد، وكيف لا يذكره، والمناسبة هذه لا تدعُ قريحةً خصبةً، هدبها الايمان، إلا أنارتها وجلتْها، كيف لا يذكره، ورابطة العقيدة غضت الطرفاً أمامها كلُّ روابط سقيمة مهزوزة، وإلا، فما الذي ربط بين شاعرنا، الذي تشير «هويته الشخصية» إلى أنه أردني، من ذلك المرثي «اليميني» رحمه الله!! ابتعدا في الديار، ولكن القلبين ارتبطا برباط لم تنفصم عُراه، فوجدنا نبضات قلب شاعرنا المعطاء تجود بهذه الأبيات التي تفيض رقةً وإحساساً وعاطفةً:

كُلُّ قَلْبٍ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ
كُلُّ قَرْدٍ مِنْهُمْ خَلِيلٌ سَمِيرٌ
وَنَفُوسُ الْأَبْرَارِ شَفَتْ صَفَاءً
مِثْلَمَا شَفَتْ فِي الرِّيَاضِ الْعَدِيرِ
يَا لَفَجْرٍ يَنْسَابُ فِي مَقَلَةِ اللَّيْلِ
لِئَلْ يَفْعَلُوا التَّهْلِيلَ وَالتَّكْبِيرِ
كَلَّمَا أَرْسَلَ الصَّبَاحُ شِعَاعاً
أَذَّنَ الدَّيْكَ وَانْتَشَى الْعَصْفُورُ
وَبَدَتْ صَفْحَةٌ مِنَ الْحُسْنِ فِيهَا
أَسْطَرُّ خَطَّهَا الْبَدِيعُ الْقَدِيرُ^(٢)

وما كان شاعرنا ليُهدي خواطره هذه، إلى هذا الشهيد رحمه الله، إلا كما قال: «تقديراً لجهاده، ووفاءً لاستشهاده»، وما ذلك إلا تاج على جبين شاعرنا الوفيِّ الوضَّاء.

(١) الشوقيات ج٣ ص ٧٦ . (٢) ص ١٢٤ و ١٢٥ .

شاعرنا - بلا شك - يرى حملات الكيد التي دأب تجار العصبيات على نشر سموها، حين هم لم يزنوا بميزان الله، ولم يكيلوا بصاع محمد عليه السلام، فسموا كلاً بإقليميته، وعلى تعداد دول الأرض، تناسوا أن دين الله لا يقر تلك الحدود وتلك القيود، وأن «جواز سفر» فؤاد المسلم سيظل «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ومهما نأت الأمصار، أو حطط الاستعمار، سيظل المسلم البيقظ يسخر بحواجز القطيعة، وسدود الذل، سيظل يعرّي «سايكس بيكو» التي رسمت الحدود، وذلك كتبه المؤمن على جدار القلب، فوجدنا شاعرنا المؤمن العظم يقول:

كتيبة الله قد حطت بساحته

تسمو بسلمان أو تزهو بعثمان^(١)

نعم، بسلمان «الفارسي» تسمو كتيبة الله، فسلمان هذا له فضله في ميزان الله، وإن لم يكن عربياً «أصيلاً عربياً!»، فأصالة العروبة وعراقتها تستحيان من ذاتهما أمام أصالة الدين أو عراقتيه.

وهذه قصيدة رثاء أخرى هي «دموع بلا رياء»^(٢)، نظمها في رثاء المرحوم عليّ، شقيقه الأكبر، وعنوانها يدل على نقائها، ويشير إلى أنها من الرثاء الحبيب لا البغيض، فدموعه «بلا رياء»، وهل في مناسبة كهذه دموع «برياء»!، قال:

إن تحدّرت في التراب عليلاً

فلقد عشت في النفوس «عليلاً»

وليتأمل القارئ معي جميل التعبير، فالمرحوم تحدّر في التراب «عليلاً»، وعاش في النفوس «عليلاً»، وهو «عليّ». ثم أليس رثاء الأخ دينا؟ إن كان شوقي قال في رثاء أبيه:

سألوني لِمَ لَمْ أرثِ أبي

ورثاء الأب دَيْنٌ أيُّ دَيْنٍ^(٣)

(١) الشوقيات ج٣ ص ١٥٤.

(٢) ص ٢٢٥.

(٣) ص ١٤٩.

فلسانُ حالِ شاعرنا العظم يقول:

سألوني لِمَ لَمْ أرثِ «أخي»

فرثاءُ «الأخ» ذَيْنُ أي دين

والمسلم إذا اشتدَّ حزنُهُ، وعَظُمَ حَظُّهُ، لا يجد من يتأسى به خيراً من حبيب الله عليه السلام، الذي نال من ربِّه ما لم ينل مخلوق، ومع ذلك أماتُهُ، نعم أماتهُ، وقال له:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١)، وهكذا فعل شاعرنا:

وقديماً ضمَّ الثرى عبقرياً

وحكيماً وقائداً ونبياً

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٢)، فحسبُ آلِ العظم عزاءً سنَّةُ الموتِ في النبي عليه السلام، وقبَّل شاعرنا قال مثل هذا شوقي في رثاء سعيد زغلول:

آل زغلول حسبكم من عزاءٍ

سنَّةُ الموتِ في النبي وآله^(٣)

ووجدنا شاعرنا يقول:

إنَّها سنَّةُ الوجود قديماً

أن يضمَّ الثرى نجوم الثرى

﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾^(٤)، من الأرض، وفي الأرض، ومن الأرض تارة أخرى، وسواء مات نجم الثريا في ثرى أم في غيره، فالموت موت:

يموت في الغاب أو في غيره الأسد

كُلُّ البلاد وساد حين تُتسد^(٥)

(١) الزمر ٣٠.

(٢) الرحمن ٢٦.

(٣) الشوقيات ج٣ ص ١٣٢.

(٤) طه ٥٥.

(٥) الشوقيات ج٣ ص ٦٢.

وأبيات شاعرنا في رثاء المرحوم أخيه مؤثرة، لكن ما يبعث على الأمل، أن الخيط الايماني ظل يسري متصلاً في أبياتها كلها، لم ينقطع، ولقد اعتبر عبرة حية قريبة، فهو يسائل نفسه كما ساءل شوقي نفسه حين قال في رثاء علي بهجت:

أحقُّ أنهم دفنوا علياً
وحطُّوا في الثرى المرءَ الزكياً^(١)

ولكنها الحقيقة التي لا مرأى فيها: «الموت حق»، وهي حقيقة تُرعب، فآن لعصاة القلوب أن يرتدعوا، وأن يعتبروا، وأن يرشدوا، آن لهم أن يحسبوا «حساباتهم»، أن يلموا شتات «أرصدتهم»، ثم هم بعد ذلك كله ينظرون: أناجحون هم أم راسبون؟.

أما الهجاء في شعر شاعرنا فهو يتقي فيه ربه، يهجو أعداء الله صراحة، وما أكثر مثل هذا في شعره!، أما النوع الذي يهمنه هنا، فهو هجاء من تشهد «هوياتهم» أنهم مسلمون، من رعاة الأمور والرعايا، وفي مثل هذا، لا يخوض كما خاض كثير من جاهليي القرن العشرين، الذين ملكوا موهبة شعرية، من ذم لأشخاص معروفين، وتوجيه أبشع أنواع الشتائم والسباب، وانما وجدناه يذم الأفعال، لا الأشخاص، ووجدناه يقول في مقدمة قصيدته الشهيرة: «ضلال... ونهب»^(٢): «ليس في شعري هجاء للرجال... ولكنه هجاء للضلال!»، وما أكثر ما نجد شاعرنا حريصاً، أن يقتفي سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام! كان عليه السلام يرى نقرأ يفعلون ما لا يُرضي، لم يكن يشهر بهم، لم يكن يفضح أمرهم، وأنى له عليه الصلاة والسلام، أن يفعل مثل ذلك، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه!!، كان يصعد على المنبر فيقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا...» يسمع الفاعل المعني فيفهم أنه معني، وقد ستر الرسول أمره، فيقلع عمّا فعل، وهكذا فعل الشاعر المسلم العظيم، بدأ القصيدة المذكورة عند قبر سيد الشهداء حمزة في أحد، فأثار ذلك في نفسه حمية اسلام، وعزة ايمان، وقارن بين ما كنا وما نكون، فكانت هذه الزفرة الحرى:

(١) الشوقيات جـ ٣ ص ١٨٤.

(٢) ص ٢٠٧.

كَسَرْنَا قَوْسَ حِمْرَةَ عَنْ جِهَالَةٍ
وَحَطَّمْنَا بِلَا وَعْيٍ نِبَالَه
فَمَرَّقْنَا الْعَدُوَّ وَلَا جِهَادٍ
وَشَرَّدْنَا الطِّفْلَةَ وَلَا عَدَالَةَ
وَبَاتتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ حَيْرَى
وَبَاتتْ رِعَاتُهَا فِي شَرِّ حَالَةٍ
فَلَا الصَّدِيقُ يَرِعَاهَا بِحِزْمٍ
وَلَا الْفَارُوقُ يورِثُهَا فِعَالَه
وَلَا عُثْمَانُ يَمْنَحُهَا عِطَاءً
وَيُرْخِصُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَالَه
وَلَا سَيْفٌ صَقِيلٌ مِنْ عَلِيٍّ
يَفِيئُنَا إِلَى «عَدْنٍ» ظَلَالَه
وَلَا زَيْدٌ يَقُودُ الْجَمْعَ فِيهَا
لِحَرْبٍ أَوْ يُعَدُّ لَهَا رِجَالَه
وَلَا الْقَعْقَاعُ يَهْتَفُ بِالسَّرَايَا
فَتَخْشَى سَاحَةَ الْهَيْجَا نِزَالَه
وَلَا حَطِينٌ يَصْنَعُهَا صِلَاحٍ
طَوَى الْجَبِينَاءَ فِي خَوَرٍ هَلَالَه
سَرَى صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ فِي حِمَانَا
وَقَدْ فَقدتْ مَاذُنُنَا بِلَالَه

مثلُ هذا - على ما فيه من زفران تلتهب - يُعدُّ هجاءً لأفعالٍ «ضلال...
وخبال» أتيناها عن جهالة، ولُنقل: عن تجاهل، كَسَرْنَا قَوْسَ حِمْرَةَ وَحَطَّمْنَا
نِبَالَه، فصرنا فريسة، عاجزين عن صون الكرامة: لا أبا بكر لنا يرى، ولا فاروقاً
يفرق بين حقِّ وباطل، ولا عثمان يسخو ويوجد، ولا علياً يرفع راية جهاد، لا
زيداً يقود شباب أُمَّة، ولا قعقاعاً يبثُّ حماساً، ولا صلاحاً يصنع حطين اسلام،
فقد طوى الجبيناء الهلال، فبات اسلامنا «شفوياً» لا «تحريراً عملياً»، وإن نادى
المؤذن خمس مرات كل يوم «الله أكبر»، لم يعد هذا يثير فينا حمية ايمان، فنرفع

الرأس بعد طول خفضٍ ، ونقول: حقاً حقاً، الله أكبر، فتمحو كلَّ معالم ذلنا
مِنَ على وجه أرض الله .

ولنتأمل قوله في القصيدة:

وحادي الـركب بومٍ أو غراب
وقد قاد الجموعَ «أبو رغال»
يُرْمِرمُ مِن قُتاتِ الكفر قوتاً
ويُلْعقُ من كؤوسهم الثمالة
فيرتج في مراعنا دخيل
يطاردُ في حضارتنا الأصالة

فهو - على ما فيه من وضوح - يكشف حقيقة مرّة.

أمّا ما يشغل بالنا هذه الأيام، فلخصه بهذا البيت:

وهَمُّ الجَمْعِ ثوبٌ أو رغيْفٌ

«وصكُّ» من رصيْدٍ أو «حوالة»

أما أسماءُ الأشخاص فنسيناها، وصرنا لا نذكر الناس «الكبار!» إلا
بالألقاب، لم نعد نقول: «فلان» و«أنا» و«أنت» و«هو»، وأصبحنا نقول بدلاً
منها: «سعادته» و«سعادتك» و«سيادته» و«سيادتك» و«فخامته» و«فخامتك»،
و«دولته» و«دولتك»، هذا بالنسبة للمخاطب والغائب، أمّا المتكلم فمصيبيته
أكبر، فواحدنا معجب «بنا» الفاعلين، كاره لثناء الفاعل، هو لا يقول في نفسه
«فعلت» وإنما يقول «فعلنا»، ولا يقول «أنا» بل «نحن»:

وألـقابٍ يتيه بها قروء

وليس لها معانٍ أو دلالة

«سعادته» شقاء في شقاء

وقد رفعت «معاليه» السفالة

«سيادته» يقيم على هوانٍ
«سماحته» يعيش مع الضلالة
«فخامته» هزيل ليس يدري
بأنَّ الناس قد فضحوا هزاله
و«دولته» يعيش مع الأماني
ويخشى أن تفاجئه الإقالة
وَهَدَمْنَا صَرْحاً عَظِيماً بَنَاهُ قَادَةُ أَوَّلِ، نَحْنُ الْدِينِ جَانِباً، وَتَفَرَّجْنَا، وَتَطَفَّلْنَا
عَلَى مَوَائِدِ أُمِّ الرِّذِيلَةِ، فَذُقْنَا وَبَالَ الْأَمْرِ، وَنَتَجَّرَعُ كَوْسَ الْهَوَانِ:
مَضَعْنَا قَلْبَ حَمِزَةَ وَانْتِنِينَا
نَذُوقُ الْمَرَّ أَوْ نَجْنِي وَبِأَلِهِ
مَضَعْنَا قَلْبَ حَمِزَةَ!!، وَبِضُورَةِ فَاقَتْ قَسْوَةَ هِنْدِ بِنْتِ عَتَبَةَ!!.

وقد طرق شاعرنا باب شعر «الوجدان»، الذي يعتبر الركيزة الأولى في الشعر
الحيي، كما قال دعاة التجديد في الأدب العربي الحديث، هكذا قال
عبدالرحمن شكري:

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان
وهكذا قال شعراء «الديوان»، وشعراء «أبولو»، وشعراء «المهجر» وغيرهم،
ومن هذا الصنف قصيدة شاعرنا «أمي»^(١) التي منها:

قالوا حياتك عطر قلت يُرسله
قلب كبير يشعُّ النور مُدُّ كانا
قالوا حياتك حبُّ قلت واهبه
مَنْ هَدَّهِ الْقَلْبُ إِشْرَاقاً وَوَجَدَانَا
قالوا حياتك عطر قلت مصدره
مَنْ أَنْبَتَتْ فِي حَنَايَا الْقَلْبِ رِيحَانَا

(١) ص ٢٢١.

قالوا حياتك برُّ قلت صانعُه
صدرٌ كبيرٌ غدا للبرِّ عنوانا
قالوا حياتك لحنٌ قلت تعزفه
قمريةٌ ملأت جنبِي ألحانا
قالوا حياتك نبعُ قلت فجره
مَنْ فاض مِنْ موطن الايمان ايمانا
قالوا فمن تلك في دنياك تملأها
عطراً ونوراً وإلهاماً وإحسانا
فقلت أمي التي هامت بها كبدي
في برّها أنزل الرحمن قرآنا
جزاك ربك يا أمّاه مغفرةً
وجنة الخلد تكريماً ورضوانا

فقلبُ الأم لا «يضفي» نوراً، وانما هو «يشعُ» بالنور، فكأنما بثَّ النور
سجيةً فيه وطبع، أضف إلى ذلك أن إشعاع النور فيه ليس لأمد محدود، وانما
هو «يشعُ» النور «مذ كانا»!، وحياة شاعرنا «حبّ»، حبّ بنوة صادق، وحبّ
أمومة حانية، هو أصفى وأنقى وأطهر وأخلص حبّ عرفه خلقُ الله. والأمُّ لا
تهدهد ولدها، وانما هي تهدهد «قلبه»، وفي ذلك تعبير أمين حيٍّ عمّا بين الأم
والولد، من رباط وشيخ لا يبليه مرُّ أيام، أو كرُّ دهور. حياة شاعرنا ليست عطرة
عبقة فحسب، وانما «هي العطر» ذاته، لو كانت حياته «عطرة» فحسب، لكان
عطرها آتياً من مصدر ثانٍ، يَمْنَح العطر، هي «العطر ذاته»، وفي هذا تأكيد على
أنَّ عطرًا هذا حاله لا ينضب معينه، ونبعُه ثرثار لا يغيض. والأمُّ فوق ذلك لا
تُنبت «في القلب» الريحان، وانما هي تُنبتة في «حنايا القلب». وحياة شاعرنا
ليس «فيها برُّ» فحسب، بل هي «البرُّ ذاته»، والذي صنع هذا البرِّ ليس «صدراً»
فقط، وانما هو «صدر كبير». وحياة شاعرنا ليس «فيها لحن» وحسب، وانما «هي
لحن»، عزفته مَنْ لم تملأ «جنبه» ألحاناً، وانما ملأت «جنبه».

وأخيراً، أمّه لا «تجعل» في دنياه العطر والنور والإلهام والأمان فحسب،

وانما هي «تملاً» ذنياه كلها، وفي ذلك كله تعبير صادق حي أمين، عن حنان الأم ودأبها على إسعاد الأبناء .

مديحُ الأمهات نَعَمَ المديح، وبرُّ الأمهات نعم من برِّ، ألم يقرن سبحانه رضاه برضاء الوالدين؟ ألم يُقرن سبحانه الإيمان بوحدانيته بالاحسان لهما؟ ألم يقل سبحانه «وبالوالدين إحساناً» بعد قوله عز من قائل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾؟ فإن كان شاعرنا قال في أمه: «هامت بها كبدي»، ألا يعني ذلك أن شاعرنا استجاب للنداء الرباني العظيم؟ وشاعرنا لم يقل «هامت بها عيني» ولا «هام بها لساني»، فما أكثر ما تهيم العين أو يردد اللسان، والقلب ينفي ويفند!!، وانما وجدناه يقول: هامت بها «كبدي». وفي ذلك بيان أن حبه هذا، خرق شغاف القلب، فتحكم فيه وتملك وتمكّن .

أخيراً، إن كان ربنا تباركت أسماؤه قال ﴿وقل رب ارحمهما﴾ فإننا وجدنا الشاعر يقول:

جزاك ربك يا أمّاه مغفرةً
وجنة الخلد تكريماً ورضواناً

ومن شعر الوجدان كذلك قصيدته «وعف عماد»^(١) التي قدم لها يقول:

«قدّر لولدي عماد أن يمضي لدراسته الجامعية في بلد أجنبي . . . وأحسّ الفتى بصفاء عقيدته، ونقاء فطرته، أن دراسته في ذلك البلد، قد تقوده إلى غير طريق الله، فأرسل يرجو أن يعود حرصاً على إيمانه، وحفاظاً على دينه . وقدّر لعماد أن يستمر في دراسته . . . فهل تراه كذلك يستمر في صفاء العقيدة، ونقاء الفطرة، وعفة السلوك؟!»، قال فيها:

رق حتى صار عطراً وضياءً ونسيماً
وبدا حازماً كحدّ السيف وضاءً وسيماً
وسما فوق جبين النجم عنواناً كريماً
وصفاً نفساً وخلقاً وسلوكاً مستقيماً

(١) ص ٢٢٨ .

رجم الشرُّ فذلَّ الشرُّ وارتدَّ رجيمًا
ودعا الله فلَّياه رؤوفًا ورحيمًا
يا عماد الدين لا تندم فقد كنت حكيمًا

كم طوت تلك المتاهات صبايا وشبابا
فتمردت عليها صادقاً ترجو ثوابا
ورفضت الباطل المظلم واخترت الكتابا
فأنار الحق في جنبك للجبل شهابا
وبدا النور على وجهك آملاً عذابا
والهدى برعم في صدرك أزهاراً وطابا
يا عماد الدين لا تطرق لغير الله بابا

فعمادٌ أحسَّ أن دراسته في ذلك البلد «قد تقوده إلى غير طريق الله»، فبدأ
«حزماً كحدَّ السيف»، وسما «فوق جبين النجم» و«صفا نفساً» و«رجم الشرِّ»
و«دعا الله فلَّياه».

أمَّا اسمه «فعماد»، ولكنَّ والده الشاعر أطلق عليه اسم «عماد الدين» ليؤكد
المنحى الديني، وإلَّا لماذا كان أرسل إلى والده يرجو أن يقطع الدراسة ويعود؟
كان غرضه حرصاً على إيمان، وصوناً لعقيدة، وحفاظاً على الدين، نعم،
الحفاظ على الدين، فاستحق - وبجدارة - أن يسمَّى «عماد الدين»، تماماً كما
سمَّى أبو تمام فتح عمورية، لم يسمَّه فتح عمورية، وإنما سمَّاه «فتح الفتوح»:

فتح الفتوح تعالي أن يحيط به

نظم من الشعر أو نثر من الخطب^(١)

ففتح عمورية لدى أبي تمام «فتح الفتوح»، وعماد لدى أبيه الشاعر «عماد
الدين»:

(١) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، المجلد الأول ط٤ ص ٤٠.

يا «عماد الدين» لا تندم فقد كنت حكيماً

يا «عماد الدين» لا تطرق لغير الله باباً

وما أكثر ما أصاب الحقيقة قوله:

كم طَوْتُ تلك المَتَاهاتُ صبايا وشباباً

أو غريبٌ ذاك الذي بدر من عماد أو من أبيه؟ لا والله، ومن قال غير هذا كان ضالاً أو مضلاً، قائلٌ غيرِ هذا مكابر أو مجادل بما لا يعلم، مَنْ أنكر هذا كان كمن أنكر مرار علقم أو حنظل، كان كمن يعيش في ظلام دامس فيقول: ما أنصعه من ضياء!، كان كمن يشرب ملحاً أجاجاً فيقول إنه لعذبٌ سائغ للشاربين، كم بعثتُ أسرُنَا بشبابها «ليتعلموا»، فتعلموا... الجحود والفساد، وعادوا بأخلاق معلّمهم، وبتقاليدهم، وبأفكارهم، وبكلِّ ألم... بدينهم وعقيدتهم!!!

نعم، وألف نعم:

كم طوت تلك المَتَاهاتُ صبايا وشباباً

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، إِلَّا مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا، إِلَّا مَنْ وَهَبَ اللهُ عَقْلاً يَعْقِلُ:

فتيةٌ زادهم الله هدى حين استقاموا
فأطاعوا الله ربّاً وله صلُّوا وصاموا
ونبيُّ الله للركب رسول وإمام
جاهروا بالحقّ منهاجاً إذا عزَّ الكلام
يصنعون الفجر بالعزم لينجاب الظلام

وما أجمل ما يخاطب به شاعرُنَا ولده حيث يقول:

يا عماد الدين لا تطرق لغير الله باباً

فأبوابُ الخلق توصلد، أبوابُ الخلق تجرح كرامة الكريم، أبوابُ الخلق
تخدش خاطر وتؤذي النفس، أمّا بابُ الله الكريم، فهيها هيهات أن يُغلق.

والملاحظ، أن شاعرنا يجيد أكثر ما يجيد، حين يطرق موضوعات تتصل بالدين، وترتبط بالعقيدة، ولا سيما موضوعات الجهاد، والقدس، والأقصى، وعزة المؤمن، والشهامة، والكرامة، والأخلاق، والقيادة، والإخلاص، والوفاء، وما إلى ذلك من موضوعات حيّة مثيرة مؤثرة، تُقلق مَنْ كان ذا دين، فما أن يقرأها صاحب عقيدة، مهتم بأمر المسلمين، حتى يشعر وكأنّ شَعْر جسده انتصب كأبر، ويحسُّ وكأنه في حومة وغى، والدائرة تدور، والمعركة تلتهب، والدماء تسيل، يحسُّ وكأنه جندي أمين في جيش خالد أو سعد أو صلاح، قارئها في هذا الزمن «الأبيض!» لا يُلام لو امتحن قلبه بعد القراءة: أفيه حمية دين؟ أفيه عزة إيمان؟ أجدبُّ هو أن يكون جندياً في جيوش أولئك الأبطال القادة، أم سيقول «إنا هاهنا قاعدون»؟ أمّا أنا. فلن ألومه لو بدأ «يتحسُّ» جسده، ليرى «وبالعين واللمس» أحقاً هو رجل؟؟!! ليطمئن قلبه ليس أكثر، تماماً كما عبّر البحري الذي قال:

يفتلي فيهم ارتيابي حتى

تقرّاهم يداي بلمس^(١)

ولمّ العجب؟ ألا يبلغ تعدادنا مائتين وخمسين ضعفاً من تعداد عدونا!! فهل نحن «خشب مسنّدة»؟ هل نحن صمّ بكم؟ أم نحن لا نرى ولا نشعر ولا نحسُّ؟ هل تعطلت كل حواسنا عن عملها؟ ألنا قلوب بها نفقه؟ إنّي لفي شك، إنّي لفي شك.

والملاحظ - من وجهة نظري - أن شاعرنا حين يطرق موضوعات اجتماعية، خاصّة ما يدخل منها ضمن حدود ما يُعرف باسم «الاخوانيات»، فإنّ شعره يفتر، تهبط حرارته، ويتضاءل أثره، وتهدأ حدّة عاطفته، مثال ذلك - ولكل عين نظرة كما يقولون - قصيدة له عنوانها «عتاب»^(٢) قدّمها «إلى مَنْ تركني في ذهول وتساؤل لا ينقطع: ويحك، ما السبب؟!» قال فيها:

(١) ديوان البحري، دار صادر، المجلد الأول ص ١٩٢.

(٢) ص ٢٣١.

ما ضرَّ قلبك لو عاتبْتَ يا قاسي
وقد أصبَتْ بسهم الظلم إحساسي
قد كنتَ في حِضْنِ آمالي أهدهه
فبات قلبُك مملوءاً بوسواس
إنَّ كان ابليسُ أملَى يوم فرقتنا
من غير ذنبٍ فبئس المارق العاصي

قلْ لي برِّك ما سرُّ الجفاء وما
سرُّ التنكُّر للجراح والأسى
صوَّنتَ سهمك ترمي صدرَ صحبتنا
وكنت زينة إخواني وحرَّاسي
أتطفئُ النورَ في دربي وتخذلني
والدرب دربي والنبراس نبراسي
لكم حَزْنْتُ على عهدٍ تمزَّقه
وكم أسفُّتُ على نُوحٍ وقرطاس

فالتعبيرات «يا قاسي» و«بات قلبك مملوءاً بوسواس» و«من غير ذنب» و«ما سرُّ الجفاء» و«صوَّنتَ سهمك» و«أتطفئُ النور في دربي؟» و«لكم حَزْنْتُ على عهدٍ تمزَّقه» تقليدية متوارثة، بات أثرها فاتراً.

والحقيقة أنَّ كلَّ شعر - ومهما كان موضوعه - هو «شعر مناسبات»، فشعرُ الغزل مناسبته الحب، وشعر المديح مناسبته الاعجاب بالممدوح، وشعر الهجاء مناسبته الكره للمهجور، وشعر الرثاء مناسبته الشعور باستحقاق الميت الثناء، وشعر الوصف مناسبته الاعجاب بالشيء الموصوف، أو بيان حاله، حتى الشعر الوطني مناسبته شعور بواجب نحو وطن، وكذلك الشعر الإسلامي مناسبته شعور بواجب نحو العقيدة والأمة، وحتى شعرُ الوجدان مناسبته الافصاح عمَّا يدور بالوجدان، «فالمناسبة» إذاً هي بمثابة «محرِّك» يحرك عاطفة الشاعر، هي بمثابة «حافز»، يحفز على خوض غمار الشعر، هي بمثابة «مثير» يثير الموهبة،

فحين تتلاشى «المناسبة» فإنَّ ذلك يعني أنَّ الشاعر ينظم شعره من لا شيء،
بلا محرِّك أو حافظ أو مثير، يعني الافتقار إلى التجربة، فبذلك يكون الشعر بارداً
أو فاتراً، وبذلك يأتي الشعر سقيم العاطفة، ركيك العبارة، غمَّ الأسلوب،
ومريض الخيال.

تجديد لا تبديد

من عظيم صنَع الله سبحانه، أن جعل الحياة تتجدد، لا تستقرُّ على حال، ولا تدوم على صورة، فجعل سبحانه فصول السنة أربعة، لتبدو الطبيعة - كتاب الله المنظور - في حُلُلٍ متجددة، ولتتصور لو كانت حلتها واحدة، في الاثني عشر شهراً، كم ستكون حياتنا مملّة كئيبة!!، ومن عظيم صنَع الله سبحانه، أن لم يخلق البشر كلهم متساوين في الأعمار، وانما سبحانه يخلق ويُميت، ويخلق ويخلق، فهذا ابن تسعين، وذاك ابن عشرين، وذاك ابن سنة، وذاك ابن ساعة، ولتتصور أن خلق الله جميعهم أبناء سبعين، كم ستكون حياتنا أيضاً مملّة كئيبة!! كان يُخيّل لي، أن كلَّ رجلٍ يفضّل من الزوجات مَنْ كانت ذات جمال، حتى سألتُ أختاً أسود، غليظ الشفتين، مشقوق الوجه، أجعد الشعر، مُداعباً: أترغب زواجاً من شقراء جميلة؟ وإذا به يثور ويثور، عاداً ذلك مني إهانة!!، مؤكداً لي أن جماله المفضل المطلوب، لديه ولدى أبناء جلدته كلهم... السواد السواد!!، قلتُ في نفسي: سبحانك ربّي ما أعظمك! لو كانت رغائب الناس كلهم واحدة، كم سيكون على وجه الأرض من ظلم!، وكم مئات من ملايين النساء سيُحرّمن من زواج حلال!!، سبحانك سبحانك ما أعظم قدرتك! وما أكثر عدلك! أنت أنت الرب الذي تستحق أن تُعبَد، فإياك نعبد، إياك نعبد.

من عظيم صنَع الله سبحانه، أن جعل مخلوقاته الأخرى تختلف حجماً، فلا عمرها واحد، ولا حجمها كذلك، كذلك الأشجار، كذلك النباتات، حتى كذلك الجمادات. حتى السماء، لم يزيّنّها سبحانه بكواكب حجمها واحد، سبحانه سبحانه، خلق كوناً متناسقاً متكاملأ فأبدع، أحسن كلَّ شيءٍ صنَعاً، ودبر أمر كلِّ ما خلق، لينتظم الكون، وتستمر الحياة.

سنّة الله اقتضت أن يكون هناك تجديد، تجديد بناء، تجديد متناسق، تجديد كلّه حلقات، ترتبط الواحدة بالأخرى قبلها، وبالأخرى بعدها، ألم تر كيف أينعت أشجار، فبدت غصّة ناعمة جديدة بهية؟ ما كانت لتكون، لولا أنها اتكأت على سيقان قديمة، وجدوع صلبة، وجدور تضرب في أعماق الأرض،

سبحان الله العظيم، هذه سنته سبحانه في الخلق، أوراق تتكىء على أغصان، وأغصان تعتمد على سيقان أو جذوع، أطفال يتكثون على آباء، وآباء على أجداد، نظام بديع محكم، ما كان ليوجد لولا أن الرب الخلاق عظيم قادر وحكيم.

والأدب يخضع للنظام ذاته، وللسنة نفسها، الأديب الحديث يتكىء على سلفه، فلا أدب من لا شيء، لا يوجد أدب جديد يفتر إلى قواعد أو أسس أو جذور، فإن وُجد فهو أدب يعوزه أدب، فالطفرة الأدبية هي في الحقيقة فقرة غير ناجحة، وصاحبها واقع ومكسور لا محالة، وسرعان ما يكون أضحوكة، لمن آمنوا بالتناسق الطبيعي البناء، الطفرة الأدبية جنين أدبي، لكنه غير متكامل النمو، فلا مفر من الاجهاض، شاء صاحب الطفرة أم أبى، الجديد حين لا يتكىء على قديم، يكون كمن بنى بيتاً من غير قواعد، أو أركان، أو كمن خطط لبناء طوابق علوية من غير قواعد أرضية.

والوقوف في وجه التجديد انهزام، وكلُّ جيلٍ هياء مدبر الكون لعصره، فمن عاش في غير عصره مُغايراً لجيله، كلن كمن يسير في اتجاه معاكس للتيار، وكان كمن يقود سيارته في اتجاه معاكس. ونحمد الله ربنا العظيم، أن وجدنا شاعرنا العظم، محافظاً على «قواعد السير» الأدبي، فقاد «سيارته» الأدبية في الاتجاه الطبيعي الحق، ورأيناه موفقاً خيراً توفيق، رأيناه يعطي أوزانه الشعرية حقها فلا يبخس، ورأيناه يحفظ للقافية «حرماتها»، ومع ذلك وجدناه ينظم شعراً على شكل مقطوعات صغيرة، لكلِّ مقطوعة قافية، فبذلك، لم تكن القافية عائقاً يعيق الانطلاقات الشعرية، كما لم تكن مهينة لا يحسب لها حساب، هذه قصيدته البديعة: «دعوة الحق: الله أكبر»^(١) شاهد على ما قلنا، بدأها بمقطوعة اتخذ فيها الميم المكسورة رويّاً لأبياتها، مختتماً كلَّ مقطوعة بلازمة تنتهي بقوله: «الله أكبر»، هكذا:

دعوة الحق تعالت من فمي

ونداء المجد دوى في دمي

(١) ص ٨٧ وما بعدها.

كم زهت في الكون أسمى صفحة
كلما أشرق نور المسلم
سائلوا الكفر الذي أنكرني
ورماني بسلاح مجرم
يوم كان الجهل في ساحاته
كنت أستلهم وحي القلم
يوم كان البرء من كفي له
كنت لا أعرف طعم السقم
فشفائي إن علت ... الله أكبر!

ثم ينتقل إلى قافية أخرى، متخذاً النون الساكنة رويّاً لها هكذا:

وددوها دعوة في العالمين
تملاً الآفاق حقاً ويقين
وابعثوا في ظلها من بايعوا
جحفل العزة والفتح المبين
كم صحا الكون على أصدائها
شامخ الجبهة مرفوع الجبين
وصحا القلب على أنغامها
صادق الخفقة موصول الحنين
يرتجي الرحمة من بارئه
ويناجي ربه في الساجدين
رددوها وارفعوا راياتها
فبها عز الحمى دنيا ودين
قد علونا قد علت: ... الله أكبر!

ثم ينتقل إلى قافية ثالثة رويها دال مكسورة:

رَدُّوا الدَّعوةَ في سَاحِ الجِهادِ
واسمَعوا الأَقصى جِراحاتِ ينادي
رَدُّوها حِرَّةً مُؤمِنَةً
في سَهولِي وجِبالي ووهادي
وازرَعوا المَوتَ لظِيّ في سَاحتي
وأثيروا الحَربَ في كُلِّ بِلادي

.....

ولتَكُنْ رُوحَ الهِدى... اللهُ أَكْبَرُ!

ثم قافية رابعة رويها راء مشبعة بفتح :

رَدُّوها بَلَسَماً يَشفي الصِّدورا
وابعِثوها في الدُّنا ناراً ونورا
أَيُّها الجِندِيُّ يا مَنْ ضَيَّعوا
جُهدَكَ الخَيْرَ بهتاناً وزورا
إِنَّ صَنَعَتَ النِّصرِ أو ذُقْتَ الرِدى
نَلتُ من رَبِّكَ جَناتٍ وِحورا

.....

خيرُ ما تُجزي بِهِ... اللهُ أَكْبَرُ!

ثم خامسة رويها حاء مكسورة :

رَدُّوها دَعوةَ الحَقِّ الصُّراحِ
وابعِثوا أَصداءَها كُلَّ صِباحِ
فهي رَمزٌ لِإِباءٍ شامِخِ
وهي عِنوانُ جِهادٍ وكِفافِ

.....

وينادي للعِلا... اللهُ أَكْبَرُ!

فسادسة رويها راء مشبعة بفتح، فسابعة، رويها همزة ساكنة، فثامنة رويها

هاء ساكنة .

وهي قصيدة تُعدُّ نشيداً حياً مؤثراً، يحرك أوتار القلوب المؤمنة، ما أحوح شبابنا أن يحفظوها ويحفظوا مثلها، لتُجبل العزة الايمانية، والرجولة والإباء . . . في الدماء . ومثلها القصيدة التي تليها، والتي عنوانها «بسة الشهيد الصامت»^(١) وجعلها ثلاث مقطوعات شعرية، اتخذ للأولى الميم المكسورة رويّاً:

اكتب حياتك بالدم
واصمت ولا تتكلم!
فالصمت أبلغ في جراح الحادثات من الفم
.....

واتخذ للثانية النون الساكنة رويّاً:

اكتب حياتك باليقين
واسلك دروب الصالحين
فالصمت من حر يفوق
زئير آساد العرين
.....

وللثالثة الميم الساكنة:

اكتب حياتك بالألم
واصرع عدوك بالقلم
فمداده أقسى على صدر الغشوم من السقم
.....

ومثلهما كذلك قصيدة «أمة الأصنام»^(٢)، التي تألفت من خمس مقطوعات، كلُّ مقطوعة خمسة أبيات، رويُّ المقطوعة الأولى هاء مشبعة بفتح، والثانية لام ساكنة، والثالثة عين ساكنة، والرابعة عين ساكنة، وأما الخامسة فهاء ساكنة.

(٢) ص ٩٩.

(١) ص ٩٥.

وكذلك قصيدته «نسمات . . . من أفياء الأقصى»^(١) وقصيدته «رجعة . . . يارب»^(٢) وقصيدته «وعفَّ عماد»^(٣).

وطرقَ شاعرنا نموذجاً فريداً في تنوع القوافي، إذ جاء بأبياتٍ ثلاثة بقافية موحدة، ثم أتى بلازمة تشتمل على بيتين متّحدي القافية، ثم بأبياتٍ ثلاثة أخرى لها قافية غير الأولى، ثم باللازمة الأولى نفسها، ثم بأبياتٍ أخرى ثلاثة لها قافية غير السابقتين، ثم باللازمة ذاتها، هذا ما فعله في نشيده المعبر المؤثر «حماة الأقصى»^(٤)، الذي قال فيه:

نحنُ أجيالُ الغد
وجنودُ السؤدد
قد نهلنا علمنا
من كريم المورد
من سنا قرآننا
والهدى المحمّدي

ثم جاء بلازمة:

فاشهدي يا أرضُ واصغي يا سماء
أننا لا نبتغي غير البناء
مذ سلّكنا دربنا في عزّة
ومضينا في ركاب الأنبياء

وكرر مثل هذا ثلاث مرّات في القصيدة الواحدة.

كما طرقَ نموذجاً آخر من نماذج تنوع القوافي، حيث جاء بيتين متّحدي القافية، متشابهي التفعيلات، ثم جاء بلازمة، لها تفعيلات شطر أحد البيتين، وهذا واضح في نشيده «حيّ على الجهاد»^(٥)، هكذا:

(٣) ص ٢٢٩.

(٢) ص ١٦٤.

(١) ص ١٠٦.

(٥) ص ٢٤٥.

(٤) ص ٢٤١.

سائلوا الأنجما
كيف ضاع الحمى؟
واشربوا العلقما
أو نرى المسلما
فوق هام الوجود

ونظم شعراً على شكل رباعيات، كما في «رباعيات من فلسطين»^(١)،
ضمّنها إحدى وعشرين رباعية، كلُّ واحدة أربعة أبيات متّحدة الوزن والقافية.

هذا ما يخصُّ تجديدات شاعرنا في الأوزان والقوافي، أمّا التجديد في
الموضوعات، فموضوعاته التي طرق جديدة مبتكرة، فيها طرافة، ولها جاذبية،
لها رونق، وفيها حلاوة، تفتح شهية مَنْ آتاه الله فمأ حلواً معافى، وتقرّ لها عيون
العاقليين، بل تظمئنُّ لها بصائر الذين يفقهون، وليتأملُ القارئُ معي بعضاً من
عناوين قصائده، علّه يدرك ما أدركت، ويحس ما أحسست، من قصائده: بسمة
الشهيد الصامت، في محراب القلب، اللعوب الفارس، رَجَمْتُ إبليس، حَمَلْتُ
وَادَعُ وَلَيْثُ هصور، لَبَيْتُ بالقلب، اليتيم الأعزّ، الباب الذي لا يُغلق، نبضات
القلوب، باسم الشعب ولا يدري، وغيرها كثير كثير.

كذلك طرقَ موضوعات تتصل بحياة «اللاجئين»، منها: ١٥ أيّار، يوم
المؤن، الغوث، رغيف الذلّ، غرّة الشامخة، فتاة القدس، سموم، نار على
المحراب، مجرم، توثّب، وغيرها، وقارؤها يحسُّ أنّ الشاعر أحسن وأتقن،
وإحسانه وإتقانه ما كانا ليكونا لولا أنه أحسّ فأحسن، وعانى فأتقن، فشعرَ
فأشعر، وتلك سمات الشاعر مرهف الاحساس، متّقد الشعور، إسلاميّ
الوجهة.

كذلك كان للأطفال نصيب من شعره، وهذا واضح في نشيده العذب
الجميل: «براعم الأقصى»^(٢) الذي منه:

(٢) ص ٢٣٧.

(١) ص ٢٤٨-٢٧٠.

تفتّحي بحنان
في خافقي وجنان
فأنتِ منيَّةُ نفسي
وأنتِ درعُ الأمان
إنْ أبعدتني الليالي
عنها غريباً تراني
عَشِقْتُ لثغة طفلٍ
فيها وهمتُ بثان
والكلُّ عندي أثير
يحتلُّ أعلى مكان
في القلب مني اشتياق
وذكرها في لساني
براعم الجبل غني
ورددني ألحاني
فأنتِ عنوان مجدٍ
وأنتِ رمزُ الأمان
رَفَّتْ أزاهيرُ عمري
في روضةٍ من حنان
لو ساءلوا عن فؤادي
لقلتُ في عمَّان
مع البراعم يتلو
ترتيلة القرآن

وقارىءُ الأبيات يحسُّ - وبلا شك - أنَّ قلب الشاعر هو الذي يُشَدُّ لا
لسأته، وأنَّ الرحمة بالأطفال، والحنو عليهم ملاً عليه جوانب النفس، وما ذلك
إلا تلبيةً لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي أوصى أن نرحم الصغير،
فوجدنا موهبةً شاعرنا الشعرية تجود بأعذب ألحان، وأرقّ مشاعر، وأصدق
أحاسيس. وليتأمل القارىءُ قوله:

عَشَقْتُ لثَغَةَ طِفْلِ
فِيهَا وَهَمْتُ بِشَانِ

فسيحسُّ أن بين الشاعر وبين «براعم الأقصى» وُدًّا وألفةً، وما أعظم ما يربط
قلبه بأطفال اليوم، ورجال الغد:

والكُلُّ عِنْدِي أَثِيرُ
يَحْتَلُّ أَعْلَى مَكَانِ

وهو يريد لهم خطأً إيمانياً قويمًا، ويرجو لهم وجهةً إسلامية صافية، حتى
وجدنا فؤاده دائماً:

مع البراعم يتلو
ترتيلة القرآن

وَمِنْ جَدِيدِ شَاعِرِنَا أَنَّهُ نَظَمَ فِي الشَّعْرِ الرَّمْزِي، فَقَصِيدَتُهُ «قَابِيلُ»^(١) الَّتِي
أَوْلَاهَا:

قَابِيلُ مَزَّقَتِ الْحَشَا وَذَبَحَتْني
وَمَضَّيْتُ تَلَعُقُ فِي الدَّمَاءِ وَتَشْرِبُ
وَتَصِيحُ أَنْكَ مَخْلَصٌ لِقَضِيَّتِي
وَالغَاصِبُ الْمُحْتَلُّ عِنْدَكَ أَقْرَبُ

إِلَّا أَنْ مَعَانِيهِ ظَلَّتْ وَاضِحَةً، وَلَمْ يَفْعَلْ كَمَا فَعَلَ بَعْضُ شِعْرَائِنَا، الَّذِينَ
اتَّخَذُوا الرَّمْزَ سَبِيلًا لِصَوْغِ طِلَاسِمٍ، يَخْرُجُ الْقَارِيءُ مِنْ قِرَاءَتِهَا كَمَا دَخَلَ، حَتَّى
أَنَّ نَازِمِيهَا أَنْفُسَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَقُولُونَ، سَارُوا فِي رِكَابِ غَيْرِهِمْ، دُونَ
اسْتِيعَابِ وَفَهْمِ، فَبَدَا نَتَاجُهُمْ يَكْتَنِفُهُ ضَبَابٌ كَثِيفٌ، وَبِاتِّتَالِي بَدَا عَاجِزِينَ عَنِ
إِفْهَامِ الْقَارِئِينَ. صَنِيعُ شَاعِرِنَا لَيْسَ كَصَنِيعِ أَوْلَئِكَ، وَالْقَارِيءُ لِقَصِيدَتِهِ سَالِفَةُ
الذِّكْرِ، يَحْسُ أَوْلَاهَا بِإِبْهَامٍ، حَتَّى إِذَا مَا تَابَعَ الْقِرَاءَةَ أَحْسَسَ بِالمَعْنَى وَاضِحًا،
تَفَسَّرَ أَيْبَاتُهَا بَعْضُهَا بَعْضًا، وَذَلِكَ مَا أَكْسَبَ أَسْلُوَنَهُ بِلَاغَةً وَفَخَامَةً، ذَلِكَ أَنَّ

(١) ص ٨٤.

الشيء إذا جاء مبهماً أوّل الأمر، ثم فُسر، أفادته ذلك بلاغة لا تخفى، فحين يطرق السمع فإنّ السامع له يذهب في إبهامه كلّ مذهب، ولهذا الأسلوب مثيل في كتاب الله الخالد، كقوله عزّ من قائل: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ ثم فسره سبحانه بأن قال: ﴿أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾^(١)، وكذلك الحال في قوله سبحانه ﴿إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما﴾، ثم فسره سبحانه ﴿بعوضة فما فوقها...﴾^(٢)، وهذا ما يوقع السامع في حيرة وتفكير، واستعظام لما قرع سمعه، أذكرُ أنني حين قرأت عنوان قصيدة شاعرنا «قاييل»، وقعتُ فعلاً في حيرة، وذهبتُ كلّ مذهب، وتساءلتُ في نفسي: مَنْ قاييلُ هذا؟ وأيُّ قاييل؟ أو عندنا قاييل جديد؟ أهو قاييل قاتل هابيل؟ أهو صاحب أول جريمة على وجه الأرض من أجل امرأة؟ ولكنني حين تابعتُ القراءة فهمتُ وفهمتُ، وتألّمتُ، ومثلُ هذا أشارَ إليه كذلك العلوي في كتابه الشهير «الطراز».

(١) الحجر ٦٦.

(٢) البقرة ٢٦.

مَسْبُوقٌ إِلَى مِثْلِهِ

الشعر - كما سبق أن قلنا - سلسلة متصلة الحلقات، حلقتُه الأولى بدأت يوم هَلْهَلُ «المهلهل» الشعر كما قالوا، وربّما قبله، وتتابعت من ثمّ الحلقات، حتى وقتنا هذا، كلُّ يضيف، وكلُّ يجري تحسناً أو تشديباً، كلُّ يطور، أو ينمّق، وحتى بدا شعرنا العربي متكاملاً متناسقاً وناضجاً، وإذا كان عنتره - الشاعر الجاهلي - قال: «هل غادر الشعراء من متردّم؟»، فما بالك بسلسلة الشعراء الذين توالوا، من زمن عنتره حتى زماننا هذا؟، هل يُعقل أن كلَّ شاعرٍ يأتي بجديد، ولا يأتي بغير الجديد!، وهل خيال كلِّ شاعرٍ، يسلك ضرباً لم تهتد إليها أخيلة أسلافه؟ هل كلُّ شاعرٍ «يكشف» دنيا من الشعر «جديدة» كلَّ الجدة، ولم «يكشفها» سابقوه؟ أيهجّر الشاعر كلَّ تعبير استخدمه غيره؟ وهل تعبيرات أدبنا لا تنفد أبداً؟ هل الصور الشعرية لا تنتهي البتّة؟ ألا يفكر شاعرنا كما فكر غيره؟ ألا يمكن أن توجد قريحته بمعانٍ اهتدت إليها قرائح غيره؟ ألا يجوز أن يستخدم شاعرٌ أداةً استخدّمها غيره قبله؟ ألا يجوز أن تكون «دنيا» الشعر، التي هام بها، هي ذاتها التي هام بها سواه؟ ألا يمكن أن يتطابق تفكيره وتفكير غيره؟ وتتواءم معانيه مع معانيهم؟ تساؤلات لا حصر لها، هي لا بدّ خاطرة على بال كلِّ من حاول دراسة ظاهرة التجديد والاحتذاء، التي نحن بصدددها.

إنّه ما من مُتَرِّين معتدلٍ في فكره ورأيه، بمسّطيع أن ينكر أن للشعر طريقاً يسلكها الشاعر، وأنه لا مناص للشاعر - ومنذ وُلد الشعر العربي وحتى أيّامنا هذه - من أن يسلك تلك الطريق لا محالة، وإمكانية وقوع عين الشاعر المتأخر، مكان وقوع عين الشاعر المتقدم في التاريخ قائمة لا محالة أيضاً، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، فمعلوم أن الشاعر الحديث، لا غنى له عن أن يُطلّع على الشعر العربي، قديمه وحديثه، ليهدّب الملكة، ويهتدي إلى ضروبٍ شعرية جميلة، جادت بها قرائح غيره، فيطلّع على ما أبدعته أخيلتهم، ويستفيد من صورهم، فينمي موهبته ويصقلها، فيتابع السير باطمئنان، فإذا ما نظم شعره، علقت بذهنه أشياء من صورهم، وأخيلتهم، وتعبيراتهم وموسيقاهم

وأوزانهم، فيخلطها بشعره، ويمتزج شيوهُ بشيء غيره، وما له بما لغيره، ومن هنا، وجدنا شعراءنا ينظمون شعراً سبقوا إلى مثله، ومنهم شاعرنا العظم.

هذه أبياته التي قال فيها:

القدس واللطرون والامتدى
وبلبل في روضةٍ غردا
وغابة الزيتون يا حسنها
تضوّعت زهراً وطابت ندى
في ظلّها يحنو على نايه
فتى كريم الكفّ عذب الصدى
من حطّم الناي على ثغره
وشردّ السامع والمنشدا
والمسجد الأقصى ومحرابه
يحنو علينا ركعاً سجّدا
قبأبه كانت تناجي العلى
وأرضه كانت منار الهدى
تحدّث الأكوان عن زحفنا
وقد بسطنا للمعالي يدا
وهامة الفاروق مرفوعة
أكرم بها في قدسنا مشهدا
يُعلي لواء العدل تكبيره
ويصنع الأمجاد والسوددا
يا قدس إن طالت بنا فرقة
فسيفنا يا قدس لن يُغمدا^(١)

وكذلك أبياته في «قلعة الربض»^(٢):

(٢) ص ١١١.

(١) ص ٢٠.

تطلُّ على «عجلون» نسرًا مجنَّحًا
يذكِّرنا بالفتح عزًّا وسؤددا
وفينا صلاح الدين سيفاً ومصحفاً
يذيق الأعادي حين يلقاهم الردى
وفي «الربض» الشَّماء صوتٌ يهزني

يذكِّرني بالفتح إذ يرجع الصدى
تنادوا وعزَّ الدين فيهم مظفر
أبى سيفه أن يستكين ويغمدا
يطاردنا الباغون في عقر دارنا
وكانت لنا الأرض الفسيحة مسجدا

جميلة حقاً جميلة، ومؤثرة ومثيرة، يحسُّ قارئها أن قلب ناظمها يتكلم،
هي قطرات دم، وزفرات ألم، وشرر تطاير علَّه يبعث حياة، ومع هذا أرى فيها
موسيقى أبيات لعلِّي محمود طه، ونفَّسه، يقول فيها:

أخي جاوز الظالمون المدى
فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفدا
أنتركهم يغصبون العروبة
مجدد الأبوَّة والسؤددا
وليسوا بغير صليل السيوف
يجيئون صَوْتاً لنا أو صدى
فجرُّدُ حُسامك من غمده
فليس له بعدُ أن يُغمدا
أخي إن جرى في ثراها دمي
وأطبقتُ فوق ثراها اليدا
فقبَّلُ شهيداً على أرضها
دعا باسمها الله واستشهدا

أخي قم إلى قبلة المشرقين

لنحمي الكنيسة والمسجدا

وهي أبيات مشهورة، لطالما رددتها اذاعتنا العربية «المجيدة!» بصوت
«المطرب!» الذي لحن نشيد الاستسلام محمد عبد الوهاب، وخاصة في
المناسبات الوطنية، وما أكثرها!!، وحين «الاعلان!» عن «تمثيلية» سموها
زوراً... معركة، وهذه قصيدة شاعرنا «رسالة... من القدس»^(١)، قال فيها:

في ساحة المسجد المحزون

شيخ على وجهه الأيام ترسم
لمن أبث شكاتي والشفاه غدت
خرساء ليس لها في الحادثات فم؟
من ذا الذي هدني ساعداً ويداً
هل ضاع دربي أم زلت بي القدم؟
لقد جرعنا كؤوس الذل مترعةً
والقدس في العار، والمحراب والحرم

أطربون لأهات نصعدها

وينزف الجرح و«القطعان» تبتسم؟
في خيمة عصف الزمان بها
لمحت بعض بني قومي وقد سلموا
فأسلموا لنيوب الموت ضاريةً
البرد والجوع والإذلال والألم
إلى متى نرتضي ذلاً يؤرّقنا
فلينطق السيف وليهتف بنا القلم

ومثلها مقطوعته «نبضات القلوب»^(٢) التي قال فيها:

(١) ص ٦٦.

(٢) ص ١٨١.

الموت في نبضات القلب يرصدنا
كما يزجر في أنفاسنا العدم
ما بين طفلٍ كزهر الروض نطقه
وبين شيخٍ عجوز هذه السقم
نصحو على خطوات الموت يحصدنا
وليس ينفع بعد الحفرة الندم

على ما في الأولى من عاطفة حيّة، وإحساس رقيق مهذب، ونزعة دينية
جليّة تستحق التقدير، وتجعل القارئ يحسُّ بأمل، ومع ما تنمُّ عنه الثانية من
إيمان بحتمية القدر الذي لا مفرَّ منه، فإنَّ روح أبيات القصيدتين، الأولى
والثانية، ونفْسهما، ونبرتهما، وموسيقاهما، سبقه إلى مثلها المتنبي في قصيدته
الشهيرة حين قال معاتباً سيف الدولة الحمداني^(١):

واحرَّ قلباه ممَّن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

إلى أن قال:

وجاهل مدّه في جهله ضحكي
حتى أتته يدُ فراسةٍ وفم
إذا نظرت نيوب الليث باسمه
فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتي من همِّ صاحبها
أدركتُها بجوادٍ ظهره حرم
رجلاه في الركض رجلٌ واليدان يدُ
وفعلهُ ما تريد الكفُّ والقدم
فالحيلُّ والليلُّ والبيداءُ تعرفني
والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلم

(١) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص ٨٠.

إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا
فَمَا لَجْرَحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ
إِلَى أَنْ قَالَ:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ
وَجَدَانَا كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
لَنْ تَرَكْنَ ضَمِيرًا^(١) عَنِ مِيَامِنَا
لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدَمٌ

كَذَلِكَ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْوَارِدَ فِي آيَاتِ شَاعِرِنَا الْعَظِيمِ الثَّانِيَةِ، وَالْمَتَعَلِّقَةَ بِحَتْمِ
الْقَدَرِ، سَبَقَهُ إِلَى مِثْلِهِ شَوْقِي حِينَ قَالَ فِي رثَاءِ مِصْطَفَى كَامِلٍ^(٢):

دَقَّاتِ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ
إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانٌ
فَاصْبِرْ عَلَى نُعْمَى الْحَيَاةِ وَبُؤْسِهَا
نُعْمَى الْحَيَاةِ وَبُؤْسِهَا سَيَّانٌ
وَهِيَ قَصِيدَةٌ جَمِيلَةٌ مَطْلَعُهَا:

المَشْرِقَانِ عَلَيْكَ يَنْتَحِبَانِ
قَاصِيَهُمَا فِي مَأْتَمٍ وَالسَّدَانِي
كَذَلِكَ قَصِيدَةُ شَاعِرِنَا الْعَظِيمِ: «ذِكْرِيَاتِ الْمَجْدِ وَالْعَارِ... فِي أَرْضِ
الْأَبْرَارِ»^(٣) الَّتِي جَاءَ فِيهَا:

أَدِرْ كُؤُوسَ الْهُدَى بِالنُّورِ تَسْقِينَا
وَنَحْ كَأْسَ الْهُوَى خَمْرًا وَغَسَلِينَا

(١) جبل على طريق دمشق مصر.

(٢) الشوقيات ج ٣ ص ١٥٧.

(٣) ص ٦٩.

فالقدس في القيد ترنو للخلاص وما
تلقي سوى الذل من أيدي أعادينا
لقد ذكرتُ لدى الأقصى تهجُّدنا
وليلة القدر نحيها فتحينا
وقبلة المصطفى الأولى وصخرته
وومضة النور في دنيا أمانينا
ومثلها قصيدته «إني أخاف الهوى!»^(١) التي قال فيها:

يا بلبلاً حلّ في أفناء واديننا
يردّد الشعرَ ألحاناً بناديننا
ويبعثُ الشوقَ في قلبٍ يعذبُه
صوتُ من المسجد الأقصى ينادينا
يا قلبُ ما لك لا تهفو لغانيةٍ
ولا تميلُ لغريدٍ يناجسينا؟
قد جئتُ يا بلبلَ الألحان في زمنٍ
ما عاد فيه سوى «الغريد» يشجينا
ولست أرضى بديلاً عن محاسنه
ولا عيونُ سوى عينيه تُرضينا
يرتلُ اللحنَ عذباً في مسامعنا
ويملاً الروضَ أطيّاراً تناغينا
إشراقهُ العمر في عينيه تسعدنا
وصدّه إن قسا والله يشقينا
إني أخاف الهوى في غير موضعه
وأرفض اللهُوزقُوماً وغسلينا
لو كان لي ألف قلبٍ ما عشقتُ بها
غير الحبيب السذي أحيا أمانينا

(١) ص ٢٣٤ و ٢٣٥.

لَكَ التَّحِيَّةُ مِنِّي عَفْءٌ وَتُقَى

ما دمت لله والتقوى تحيينا

فسبقه إلى مثلهما لحناً ونفساً ووزناً ابن زيدون في قصيدة له مشهورة
ومحفوظة متداولة، نظمها في ولادة بنت المستكفي (١):

أضحى التناهي بديلاً عن تدانينا

وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحننا

شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسي لولا تأسينا

كذلك قصيدته «مع العيد» (٢) التي مطلعها:

العيد أقبل والذكرى تؤرّقني

وليس في العيد غير الحزن والسقم

ما عاد في مقلتي طيف يداعبني

غير الأحبة في «الأقصى» وفي الحرم

سبقه إلى مثلها شوقي:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم (٣)

كذلك قوله في قصيدته «منى القلب» (٤):

إلهي إن كانت ذنوبي كثيرة

فَعَفْوُكَ يَا اللَّهُ لِلذَّنْبِ أَوْسَعُ

(١) ديوان ابن زيدون ص ٩١.

(٢) ص ٧٩.

(٣) الشوقيات ج ١ ص ١٩٠.

(٤) ص ١٧٧.

سبقه إلى معناه أبو نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً
فَلَقَدْ عَلِمْتُ بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا مؤمن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أما قصيدته «آيات»^(١) التي يقول فيها :

في رعشة الجفن تسبيح وإيمان
في خفقة القلب إحساس ووجدان
في صنعة الكون توحيد لصانعه
في ومضة العقل آيات وبرهان
في همسة الثغر إبداع لخالفه
في بسمة الطفل للخلاق عنوان
في دورة الفلك الدوار منتظماً
للعقل والقلب إفصاح وتبيان
والمنكرون لنور العقل لو عقلوا
لولا «المهيمن» ما كنا ولا كانوا!
والتي تشع بآيات الله سبحانه لا تُجحد، وبقدرة الخلاق العظيم تباركت
أسماءه، أرى فيها جو آيات ابن دراج ولحنها:
فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة
ولا مسعد إلا دموع وأجفان
وما كان ذلك البين بين أحبة
ولكن قلوب فارقتهن أبدان
فيا عجباً للصبر منا كأننا
لهم غير من كنا وهم غير من كانوا

(١) ص ١٨٠.

ونغم أبيات مشهورة لأبي البقاء الرندي، يقول فيها:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغزَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دُولُ
من سره زمن ساءتُه أزمان

أما قوله من قصيدة في رثاء المرحوم علي، شقيقه الأكبر، مخاطباً عينيه:
«فلتجودا بالدمع يا مقلتيًا»^(١) فقد جاء بمثله من قبله ابن الرومي، الشاعر
العباسي، حين قال من قصيدة له في رثاء ولده الأوسط محمد مخاطباً عينيه
كذلك:

«فجودا فقد أودى نظيركما عندي»^(٢)

أما رباعيته «فتاة القدس»^(٣) والتي قال فيها:

حدّثتني حُرّة في المجلس
بحديث الطهر عفتُ النفسِ
تسألُ القادة عن أيامنا
عند يافا: عند «باقي» القدس
في غدٍ يُشرق فجرٍ ضاحكاً
إن لقيتني في عريني أسداً
فاطمثني لخلاص «المكنس»

فمسبوق إلى مثلها، كما في الموشحة التي منها:

حين كزّ الأنسُ شيئاً أو كما
هجم الصبحُ هجومَ الحرس

(٢) ديوان ابن الرومي ج-٢ ص ٦٢٤.

(١) ص ٢٢٤.

(٣) ص ٢٦١.

غارت الشهبُ بنا أو ربّما
أثّرتُ فينا عيونُ النرجس
كذلك رباعيته «مجرم»^(١) التي قالها في ثريّ من ديارنا «تزوُّج راقصة زواجاً
عرفياً، ما لبث أن فسختهُ اللعوبُ بعد أسبوع...»، كان صداقُها عشرين ألف
دينار»، والتي قال فيها:

أترعُ الماجنُ كأساً من دمانا
وسقاها لبغيّ أرجوانا
ليلة حمراء ما أتعَسَها
مُلِئْتُ ذُلاً رهيباً وهوانا
وصمة العار على هاماتنا
أن نرى في الموكب الدامي جبانا
وإذا الدار بنوها فرطوا
لا تلموموا الذئب أن يرعى حمانا

سبقه إلى مثلها الشاعر العربي الخوري:

سائل العلياء عنّا والزّمانا
هل خفرنا ذمّةً مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيراً في دمانا
يا فلسطين التي كدنا لما
كابدته من أسيّ نسي أسانا
نحن يا أخت على العهد الذي
قد رَضِعناه من المهد كلانا

وأحياناً وجدنا شاعرنا فعل ما فعل الشعراء الأقدمون، بدأ قصيدته بما يشبه
النسيب، فوصف لوسيلة الانتقال والسفر، ومن ثمّ التحدّث عن المقصود أو

(١) ص ٢٦٤.

الممدوح، هذا ما فعله في قصيدته «تحية للجزائر!»^(١)، بدأها بما يشبه
النسيب:

يا ناعس الطرف في باريس أرفه
زيف الحضارة مزهواً بألوان
ثم تحدّث عن وسيلة سفره، الطائرة التي أقلّته إلى الجزائر:
يا قائد «الطائر الميمون» إنّ لنا
شوقاً لإخواننا أبطال وهران
فَطِرْ بنا يا بساط الريح منطلقاً
وسابق الطير من نسرٍ وعقبان
ثم جاء بما يمكن أن يُعدَّ «حُسن تخلُّص»:

حتى تحطّ بنا في ظلّ وارفةٍ
ثمأرُها الحبُّ تسقى فيض وجدان
ثم تحدّث عن المقصود، أو الممدوح، أهل الجزائر:

تلك الجزائر عاشت في جوانحنا
وحيثما كنت فيها الحب يلقاني
جزائر المجد والايمان معذرةً
إن كنتُ قصّرتُ في شعري وتبياني

وقريب من هذا قصيدته «حمل وادع وليث هصور»^(٢) التي قالها عقب زيارة
له لليمن:

عالمٌ سابحٌ وكون يدور
وسحاب يُطوى وأرض تمور

(٢) ص ١٢٤.

(١) ص ١١٦.

والفضاء الرحب الذي يَحْتَوِينَا
كالدمى : أينما كبير؟ صغيراً
حَطَّ بي طائر الصناعة رفقاً
بعد أن ضجَّ في السماء هدير
فلقيت الأحياب في يمن الخيـ
ر وفي أفقه يفوح العبير

ومعلوم أن شعراء العرب - ومنذ أقدم عصورهم التاريخية - كانوا يحافظون على نظام القصيدة، كانوا يبدأون بالنسيب، ومن ثمَّ يتحدثون عن وسيلة انتقالهم، وكانت في الغالب البعير، ويصفون ما شاهدوا في سبيلهم، وما تكبَّدوا من مشاق، وأخيراً يتحدثون عن ممدوحهم أو مقصودهم. مثل هذا وَقَع فيه كثير من شعرائنا، حتى لم يسلم منه شاعر كبير كشوقي، هكذا فعل في قصيدته في مشروع ملنر، الذي وضعته بريطانيا لتحديد علاقتها بمصر إبَّان الاحتلال، فبدأ قصيدته قائلاً:

أئنَّ عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه^(١)

وهكذا فعل الشيخ محمد عبد المطلب في أسلوبه وخياله.

من جميل صنيع شاعرنا العظم الذي يُقَدَّر، أنه أبى أن يتخذ من أدباء شرق أو غرب، إماماً يقتدي به في أدبه، كما فعل نفر غير قليل من أدبائنا هذه الأيام، الذين وجدناهم يسيرون في ركاب هؤلاء أو أولئك، يقلِّدونهم في كلِّ شيء، في الاتجاه الأدبي، في الأسلوب، في الاتجاه الفكري، وحتى في مناحي الحياة المختلفة، رضوا أن يكونوا تلاميذ لهم، وجلبوا ذلك كله، وأقحموه في أدبنا إقحاماً، على ما بين أدبنا وأدبهم من بون شاسع، وعلى ما بين تقاليدنا وتقاليدهم من تناقض، وما بين ديننا ودينهم من اختلاف، فرأينا ما بدأ في صنوف أدبهم من «اجهاض»، وبدأ أدبهم غير متكامل النمو، وبدت فيه علامات سقم.

(١) الشوقيات ج١ ص ٧٢.

شاعرنا - جزاة الله خيراً - لم نجده يقلد كولردج، وورد زورث، وهازلت،
وت.س. إليوت، وريتشاردز، وجوته، وأضرابهم، ممن ولع بهم أدياء بيننا
كثيرون، ومنذ مطالع القرن العشرين، فلم يجذبه سُخْفُهُمْ وخبثُهُمْ كله، وظلَّ
إسلاميَّ الوجهة:

عمريُّ الأمجاد غيرُ جزوع
فيه عزمٌ من خالدٍ وأسامه
فشرحبيل في دماه تلظى
ومعاذ ما زال يرعى مقامه
ويزيد الجهاد يزحف بالفتح
ويُعلي على المدى أعلامه^(١)

ظلَّ مثل هذا الهتاف صرخةً في آذان قلوب الشباب، علَّهم يلتفتون إلى
أمجاد أجداد كرام، صنعوا للتاريخ بالدين والصلاح والجهاد صفحات خالدة،
كان لهم شجاعة تهون أمامها شجاعةُ أسود، وكان لهم عزمٌ يلين الحديد ولا
يلين، ظلَّ هذا الهتافُ صرخةً في آذان قلوب فتيات الاسلام، فلا يقتفين آثار
«مدام كوري» أو «آني جارفيس» التي «علَّمت» جامعتنا العربية «العتيدة!» كيف
تقدَّر الأمهات، فجعلتْ لهنَّ عيداً في كلِّ عام!!، وجدنا شاعرنا - جزاه الله
الغرفة بما صنع - ينادي الحائرات من نساء الأمة:

ونداءً للحائرات ضياعاً
أين خنساؤنا وأين سمية؟
ورماحُ في كفِّ خولة تزهو
وسيوف في راحة المازنية؟
في المحيط اللجِّي قُدنا سفيناً
وعلى الأرض كم بعثنا سريةً
ننشر العدلَ والرخاء ونبني
بأكفِّ الهدى صروحاً عليَّة^(٢)

(١) ص ٢٦.

(٢) ص ٣٥.

نعم، ناداهن أن يقلدن الخنساء وسمية وخولة ونسيبة، اللواتي صنعن ما يشرف، ناداهن أن ينتهين عن احتذاء ساقطات باريس، وأن يقتفين آثار بطلات بحق، رباهن إسلام، وهذبهن إيمان، فكنن قدوةً لنساء ولرجال، ناداهن ألا يقلدن ضائعات فارغات، رتتهن خلاعة العصر، ومجون الزمان الذي نعيش.

وفوق هذا وذاك، وجدنا شاعرنا يتخير من اللفظ فصيحاً سهلاً، يصوغه بقلبٍ أدبيٍّ جميل، لا يكتنفه ضباب، ولم يصنع صنيع غيره، أرادوا شهرةً - ومن أقصر سبيل -، فأتوا بأدب كطلاسم، لم يفعل كأولئك الذين تحروا ألفاظاً جزلةً ضخمة مهجورة انقضى زمنها، فوجدنا القارئ العادي يحار، يقرأ وكأنه يقرأ أدباً فارسياً، الحروف عربية، ولكن المعنى غير معنى العربية، فيخرج القارئ «المسكين!» كما دخل، يدها فارغتان.

ربّما . . . نبوة صارم ، أو كبوة جواد

قال شاعر عربيّ «حسنٌ في كلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ»، وقال آخر «عَطَى هَوَاكِ وَمَا أَلْقَى عَلَى بَصْرِي»، فعلى ما لشاعرنا من حُبِّ في قلبي ، لم أحاول إخفاءه ، ومع إعجابي بشاعريته المنطلقة الفدّة ، ومع أنّ الآمال معقودة على رجالٍ ، شاعرنا - ولا أركيه على الله - منهم ، ومع ايماني أنّ شاعرنا ، يعلم أنّ اختلاف الأمزجة والميول والأهواء ، من العلامات الدالة بجلاء على قدرة الله وعظمتها ، فإنّ ذلك كلّهُ لن يجعلني أحجم أن أقول عن قولٍ قاله : لا يعجبني ، الشاعر شيء وشعره شيء آخر ، هذه حقيقة كم وَدِدْتُ أَنْ يفهمها شعراء محدثون كثيرون ، رأيتهم إذا قيل لأحدهم : شعرك فيه رداءة ، أو فيه عيب ، فكأنّما قيل له : أنت رديء ، أو أنت فيك عيب ، فيقوم ويقعد ، ويشور ويتوعّد ، وودّ لو أقام الدنيا وأقعدها من «هول!» ما سمع ، شتّان ما بين أن يكون الشاعر رديئاً ، وبين أن يكون في شعره رداءة ، أو هفوات ، أو هنات لغوية ، أو عروضية ، أو منطقية ، شتّان شتّان بين أن يكون الجمل أعرج ، وبين أن يكون الجمال نفسه أعرج ، والناقد حين ينبّه أديباً على أمرٍ من أمور أدبه ، فما ذلك مردّه إلى كُرْهِه ، أو بُعْضِ ، أو حِقْدِ ، أو حُبِّ تشهير ، ذلك إذا كانت المآخذ في «الصنعة» ، وفي «طبيعة المهنة» ، أمّا حين يكون الأدب إلحاداً ، أو شكّاً ، أو بداءة ، فأمره مختلف ، وعندها يكون الأدب وصاحبهِ رديئين ، وعندها تكون رداءةُ الأدب من رداءة الأديب ، فكما قالوا : «كلُّ إِنْاء ينضح بما فيه» . تنبيهُ الأديب أمرٌ محبّب ، يدخلُ في دائرة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ويدخل في دائرة الإرشاد والنصح ، وهل الدين إلّا النصيحة؟ ويكون التنبيه عندها دليل غيرة وحبّ ، ودليل رغبة في بقاء الصالح ، وحصول الأصلح .

انطلاقاً من هذا الفهم ، الذي أظنّه واضحاً ، لم ترني أخفيتُ شيئاً دار في خَلْدِي ، حولَ لفظٍ ، أو تعبيرٍ ، جاء به شاعرنا العظم ، بل أراني كنت أكثر جرأة في نقد شعره مِنْ نقد شعر غيره ، وإن كان ربُّنا ، تباركت أسماؤه ، أثنى على الذين يجتنبون كباثر الاثم والفواحش ، إلّا اللمم ، فلربما كان لشاعرنا شيء من

هذا اللمم، ما كتمته، وإن كان لممأ شعرياً، لا دينياً، ولا سلوكياً، وإن كان لممأ تعبيرياً لا منهجياً، وإن كان لممأ، كما رأت عيني، لا عين غيري بالضرورة، فلكل عين نظرة، كما قالوا، ورأيتني لا أبدأ من حيث بدأ شعره في ديوانه، وإنما أبدأ مسارعاً، ومن حيث كتب مقدمته، فلقد وجدته كتب عنوانه في نهايتها هكذا:

عمان - الأردن

ص.ب ١٨٥٨

وأظن، أن مثل هذا يقع فيه كثير من الناس هذه الأيام، ف صندوق البريد أصغر من عمان، وعمان أصغر من الأردن، وأن المناسب أن يكتب هكذا:

ص.ب ١٨٥٨

عمان - الأردن

الصغير، فالكبير، فالأكبر، وهكذا. هكذا أرى.

كذلك على من يرسلون، أن يكتبوا عناوينهم، ذاكرين البيت أولاً، ورقمه إن كان له رقم، فالشارع، فالحي، فالبلدة، فالدولة، وهكذا.

كذلك قوله:

إن طأطأ الباعي الجبين

فأنت وضأ الجبين^(١)

فيه ارتكب عيباً من عيوب القافية يدعى «الايطاء» وهو في الشعر إعادة القافية، مأخوذ من قولنا وطئت الشيء، وأصله الموافقة، وهو رديء حين يكون في بيتين متجاورين، أو بينهما بيت، أو اثنان أو ثلاثة، فكيف به إذا كان في بيت واحد!

كذلك استعمال لفظ «الكل» ومرتين في قوله:

(١) ص ٩٧.

لا تسأل الجزار عن فعله
فالكلُّ يحني رأسه في خضوع
والكلُّ يرضى سوطه كلما
يداعب السوطُ هزيل الضلوع^(١)

ولفظنا كلَّ وبعض، لا تدخل عليهما أَل التعريف، لأنهما موغلتان في الإبهام، وإن كان بعض المحدثين يستعملهما معرفتين. «كلُّ»، ومثلها «جميع» و«عامة»، توكيدات معنوية، يؤكد بها ما كان ذا أجزاء، يصحُّ وقوع بعضها، ولا بدُّ من اضافتها إلى ضمير يطابق المؤكِّد، كأن نقول: جاء الوفدُ كُلُّه، جاءت القبيلة جميعُها، جاء الناس عامَّتهم، فلو قال شاعرُنَا مثلاً: الناسُ كُلُّهم يُحنون رؤوسهم، والناس كُلُّهم يرضون سوطه، لكان اجتنب هذا المأخذ. وأخذ على شاعرنا قوله:

رأه كمُ أعملتُ فكري
وغرستُ من نشري وشعري
أبغى جنىً حلواً فما عادتُ
يداي بغير مرٍّ^(٢)

فماذا كان شاعرُنَا ينتظر، حين لا يكون القرآنُ حاكماً؟ أينتظرُ أن يكافأ؟ أو كان يأمل أن يُجزى الجزاء الحسن؟ وهل فعلٌ، وأعملُ فكره، وغرَسَ، أكثرُ ممَّا فعل سيدنا عليه الصلاة والسلام؟ فماذا لقي من خصومه؟ بل ماذا لقي من قومه؟ ماذا ناله من أهل مكة بلده؟ وكيف كادوا له، ومكروا به؟ وكيف تأمروا عليه؟ ألم يحاولوا قتله؟ ألم يجرِّموا بحجارة؟ ألم يؤذوه؟ أم يتهموه بجنون؟ وهل زاده ذلك كله غير إيمانٍ وصبرٍ واحتسابٍ!!!، ألم يقلُ مناجياً ربَّه سبحانه، بعد ذلك كله: «إنَّ لَم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي؟»، وأخيراً: أليس الرسول عليه السلام قدوتنا حتى نلقى الله!!، أو نسي شاعرُنَا ما عند الله!!، إن كان جنى من «متفرنجين» مرًّا، فوالله إنني - وكما أحسست -، لأشهدُ أنه لدى من هداهم الله

(٢) ص ١٦٥ و ١٦٦.

(١) ص ١٠٢.

في أعين القلوب، وإني ممن يغبطونه، ولو أحل الله حسده لحسدته، علمه ينتفع به، لن ينقطع حتى بعد أن يودع دنياه هذه، فيلقى ربه مكافحاً بكلمته الشريفة الجريئة، وشعره ونثره شاهدان له لا عليه، كما هو حال كثيرين كثيرين، فليعمل وليصمد، ومعاذ الله أن يضيع أجر العاملين.

وأعرض على قوله:

نحن لا نرضى على طول المدى

أن يكون النذلُ فينا مسلماً^(١)

يقول: «لا نرضى أن يكون النذلُ فينا مسلماً» ويا ليتة قال: «لا نرضى أن يكون المسلم فينا نذلاً»، فالنذل إذا أسلم إسلاماً حقاً، ذهب نذالته وولت، فالإسلام يعصم من النذالة، ويحرر منها، الإسلام يجب ما قبله، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإذا ما أسلم العبدُ تلاشت نذالته، واندثر جبينه، وتلاشى خوره، وزال بخله ولؤمه وغدره ومكره وهمزه ولمزه و... .

هذا ما يجب أن يكون، لا ما هو كائن، باختصار، لن نرضى أن يكون المسلمُ فينا نذلاً، لكن نرضى أن يُسلم النذل فيكون النذلُ مسلماً، فبالإسلام تُمحي النذالة، فالإسلام والنذالة لا يتواءمان ولا يتفقان البتة.

وآخذ عليه قوله مشيراً إلى «كريمة» الشاعر هشام العظم:

وَأَنَّ لَهُ دَرَّةً حُرَّةً

عروسُ النهار لها تُكسِفُ^(٢)

فكريمة الشاعر هشام هذه «تُكسِفُ» لمرآها الشمس!! أو لَيْسَتْ هذه مبالغة، يحسن بالشاعر اجتنابها؟، وهل تُكسِفُ الشمس لمرأى مخلوقٍ كائناً من كان؟ أو لم يقل الرسول عليه السلام ما مناه: ما كانت الشمس لتكسف لموت بشر!! .

ومثل هذا أخذه النقاد على شوقي حين قال:

(١) ص ٢٦٨ .

(٢) ص ٢٧٨ .

انظر إلى الأقمار كيف تزولُ
وإلى وجوه السعدِ كيف تحولُ

وحين قال في رثاء سعد زغلول:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانحنى الشرقُ عليها فبكاها^(١)

وأرفع يَدَيَّ الاثنتين «محتجاً!» على قول أخي الشاعر:

دفقة النور في ذرى البيت طافت

بعد أن كان مظلم الركن معتم^(٢)

فشاعرنا يعلم بلا شك، أن السليم لغةً أن نقول «معتماً»، وهي إن كانت تعدُّ ضرورة شعرية، فإن الأجدد بالشاعر ألا يلجأ إليها، إذ أن كلمة «ضرورة»، نَفْسُهَا، يُفْهَمُ منها أنها «اضطرار» لا «رغبة»، ومعلوم كذلك أن الشاعر الشاعر، الشعرُ في يديه كطينة، كعجينة، يشكّلها كما حلا له وطاب، فيصبّها في أيّ القوالب شاء، الشعر في يد الشاعر - كما قال شوقي - كقضيب لذن يطاوع اليد:

وكالقضيب اللذن قد

طاوَع في الشكل اليدا

يأخذ ما عودته

والمرء ما تعودا^(٣)

وأدباؤنا، وعلمائنا، جديرون أن يكونوا حماةً لغتنا وحرّاسها، وأمناءها، وعمدائها، الذائدين عن حماها، أمّا أن يبيحوا لأنفسهم بتجاوز «الحدود»، وتخطي «الضوء الأحمر»، أمّا أن يبيحوا لأنفسهم مالها وعتادها، فما ذلك بإنصاف، و﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾^(٤).

(٢) ص ١٤٤.

(١) الشوقيات ج ٣ ص ١١٦ و ١٧٤.

(٤) النجم ٢٢.

(٣) الشوقيات ج ٤ ص ١٩٢.

هذه المآخذ لا تسيء إلى شاعرية شاعرنا - سدّد الله خطاه -، فما الشاعر إلا إنسان، قد يخطيء، وقد يصيب، من شعره الحلو، لدى من استقام فهمه وحلا فمه . ومُرُّ لدى من كان غير ذلك، والشاعر يُبْرِيءُ ويشجّ، يجبر ويكسر، يأسو ويجرح، يُداوي ويُدوي، يُؤنس ويوحش، ويُحلي ويُمرُّ، نعم، من شعره ما طعمه عسل، ومنه ما طعمه غير ذلك، وكما قال الشاعر العربي :

ممقّرٌ مرٌّ على أعدائه

وعلى الأذنين حُلُوٌّ كالعسل

هي ملاحظات رأتها عيني الضعيفة كما خَلَقَهَا ربي، فلا عيني بمتفردة برؤية ما لا يرى غيري، فلا أنا من اليمامة، ولا أعرف حتى زرقاءها، وإن كانت عيون أناسٍ رأتُ سراباً، فظننته الماء، فلربّما عيناَي رأتا ماءً، فظننتا أنه السراب، وسبحان الخلاق العظيم، لا يضلُّ ولا ينسى .

شاعريّة منطلقة، وجهد لا يضيع

والآن، وبعد أن عايشنا شِعْرَهُ، زمناً ليس باليسير، أصبح جلياً أنه شاعرٌ ذو بصيرة مبصرة، وقريحة أخاذة، ولبّ متفتّح، وعاطفة تأسر الألباب، أمّا خياله فمتوقّد، وأمّا الشاعريّة فمنطلقة مواتية، والشعر يتدفّق عليه تدفّق نبعٍ في سَفْح، فينسب رَقْراً لطيفاً منعشاً، لأنّ له القوافي، فهو لا يكُدُّ لها ذِهنًا، ولا يعصر فكراً، يطلبُ الشِعْرَ فينقادُ له أنقياداً، ها هو يلتقي ذات مرّة بشاعرٍ من شعرائنا «الأحرار!» «التقدميين!» هو صالح جودت، يُلقِي الأخيرُ قصيدةً له في الملتقى الفكري الاسلامي التاسع، والذي انعقد في تلمسان في الجزائر في تموز «يوليو» سنة ١٩٧٥ للميلاد، فيضمّن الشاعرُ «الماجد!»، قصيدته تلك أبياتاً عابثةً، تدلُّ على «تحرّره وتقدّمه!»، وتشير إلى «الفرنجة!» التي تباهينا بها، تشيرُ إلى ما همنا به حباً من لهُو فارغٍ، وإضاعةٍ للأعمارِ، فيما يُغضبُ الربَّ سبحانه، متناسين أنه وكما قال المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرفٍ من الإنسان^(١)

وجاء في قصيدة صالح جودت هذه قوله:

وبئس ليل ما به آهة

من أمّ كلثوم ومن أسمهان

فتنطلقُ شاعريّة شاعرنا العظم، وتهتزُّ أوتارُ القريحةِ الأخاذة، وتَسْتَسَلِّمُ له القوافي، فيردُّ عليه مرتجلاً اثني عشر بيتاً، منها قوله:

فأين أين السجّادات التي

نسجدها لله لا لِقِيان؟

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت ص ٤١٤.

وأين آيات الهدى رُتلت
تزيّن الأكوانَ طولَ الزمان؟

وأين صدرٌ نابضٌ بالتُّقى
وأين سيفٌ لا يُقرُّ الهوان؟
وأين إيمانٌ به نرتقي
معارض الكون، ودينٌ يُصان؟^(١)

وهذا الشاعر هشام العظم، يبشّر بعقد قرانه قائلاً:

وهكذا عادت الأقدار حانيةً
على هشامٍ بتزويجٍ وتمكين
نكايةً بأخٍ، كم راح ينصّحني
بالكفِّ والصبر من حينٍ إلى حين
فتنسأب شاعريةً شاعرنا متدفقةً معطاءةً، وتجوّد بهذه الأبيات:

قد سرّني ما بدا فيما بعثت به
من أحرفٍ راقصاتِ الياء والنون
ومن حرارةٍ دفءٍ قد ظفرت به
كادت على البعد بالقرطاس تكويني

فأهناً بصدقٍ ودادٍ كنت تنشده
والقلبُ منك ينادي: لا تلوموني!
واهتف بنا بلسان الحالِ في مرحٍ

باتت كؤوسُ الهنا والودّ ترويني
قد كان نصحي عن حبٍّ ومرحمةٍ
يفيض من قلبي ألحاني ومن ديني^(٢)

(٢) ص ٢٨٤.

(١) ص ٢٧٤.

ألفاظ شاعرنا فصيحة، وتعايبه بليغة، حَمَلَتْ وراءها معاني سامية عذبة، تَسُرُّ الدين وذا الدين، لا نريد أن نقول كما قال الجاحظ في أن المعنى ليس مقياساً للبلاغة، كما لا نريد أن نرى ما رأى أبو عمرو الشيباني من أن المعنى وحده مقياسُ البلاغة، وإنما نقول إن مقياسها المعنى واللفظ معاً، فاللفظ الحسن يشينه المعنى الرذيل، والعكس صحيح كذلك. لو أخذنا بتقسيمات ابن رشيقي للشعراء، حين قَسَمَهُم أربع درجات، فَجَعَلَ منهم الشعور الذي لا شيء له، والشاعر الذي فوق الرديء بدرجة، والمفلق الذي شعره جيد ولا رواية له، فإننا نستطيع أن نعدَّ شاعرنا العظم من النوع الرابع الذي سمَّاه ابن رشيقي باسم الشاعر الخنذيذ، وهو الذي شعره جيد، ويروي الجيد من شعر غيره، فهذا هو «في رحاب الأقصى» تاج على جبين شعرنا في القرن العشرين، وحقُّ لشباب الأمة المحمديَّة أن تفخر به وبأمثاله، وتزهو بأدابه، وها هي أشعارُ غيره التي رواها في كتبه تشهد بذلك. أهيب بقراء الأدب أن ينهلوا أدباً رفيعاً مهذباً ينمي الذوق، ويوطد أركان العزَّة الاسلاميَّة في نفوس الأجيال، ويبعث على الأمل، عندها تتراقص الأفتدة رقصة كرامةٍ وسؤدد، لا رقصة ذلٍّ وخنوع، أهيب بهم أن يقرأوا «في رحاب الأقصى» و«المنهزمون» قراءة واعية، فلقد والله قضيت أياماً في قراءتهما وغيرهما من كتبه، طرحتها بعدها ولسانُ حالي يقول: إنه لأديب كريم المَحْتَد، شريفُ المنبت، أصيلُ العنصر، طيبُ المغرس، هو مُعَمُّ مُحْوَل، راسخُ النسب، ليس مقرفاً، ولا هجيناً، ككثير من متطفلي الأدب الساقطين، وهو فوق هذا وذاك: شامخٌ في العِلْم. ومالي أطيل؟ هو غرَّة آل العظم الطيبين، وهو سنام النهج الاسلامي الفياض في البلد الطيب، أردن الإيمان، وأدابه تُعدُّ امتداداً للأصالة الاسلاميَّة المشرفة في أردن الإسلام، الأصالة التي تشهد بها آثارُ السلف الصالح، الباقية في هذا البلد المكافح حتى أيامنا هذه، هذه قلعة الربض في عجلون، قلعة أبيَّة عتيده، بناها عزُّ الدين أسامة، من قادة صلاح الدين، صلاح الدين الذي أقسم أنني ما ذكر على مسمعي اسمه إلا وأحسست بشعر جسدي يقف، وكأنَّ دمي غدا ماء نار، وكأنَّ القلم في يدي صار رُمحاً أشقُّ به بطون القراطيس، بل وكأنَّه سنانٌ أنحرُ به رقاب الأوراق، قلعة الربض هذه كانت شوكة في حلوق الصليبيين، إخوتنا هذه الأيام «في العروبة!!».

وهذه قلعة الكرك، بناها صليبيون، فاقتحمها المسلمون واحتلّوها، وهذه قلعة الشوبك، وقلعة السلط، وقلعة العقبة، بل هذه مقامات أبطال مؤتة: زيد وجعفر وابن رواحة في المزار، ومقام ضرار وأبي عبيدة في الغور الأوسط، ومقام شرحبيل بن حسنة في وادي اليايس، ومقام معاذ بن جبل القريب من الشونة الشمالية، ومقام ميسرة قرب السلط، ومقام زيد بن علي في الربة. أمّا معان - بلد شاعرنا - عرين الايمان، فعلى مقربةٍ منها ما زال صامداً جبل أبي موسى الأشعري، الذي جرى عليه التحكيم بين عليّ ومعاوية، ولقد شاءت الارادة الالهية التي لا تقهر، أن يَخْرُجَ منها شاعر الدعوة في أردن الايمان، ولسان أدبه يقول: يا شعراء الجنس، يا شعراء تجّار الوطنية، لا تختلفوا، فأنا بينكم الحكم، شِعْرَ الاسلام نَخْتار، شِعْرَ الايمان ننتخب، شِعْرَ الجهاد نُريد.

وكيف لا أقول هذا في «عظمتنا» العظم، وقد وجدناه وضَع لِشِعْرِ الدعوة الاسلامية أعلاماً لا تشبهه، وبنى له مناراً لا ينهدم، فأشعاره دلائل ناطقة، وشواهد صادقة، وآيات باهرة على النهج القويم الذي سلكه.

أمّا أسلوبه، ففصيح اللفظ من غير تكلف، نَسَاجُ لما يريد، من عبارات كالسيف العضب، قريحته تجود حيث شاء، كَبْلُيلُ صدّاح، سَمَحُ البديهة، واسع المجال، رحيبُ الباع. أمّا شِعْرُه، فَبَحْرٌ لا يُنْزَفُ، عَمْرٌ لا يُسْبَرُ، يَدُلُّ له القَوْلُ، مُجَنَّبٌ مواقف الزلل، مُؤَيَّدٌ بالتوفيق، يقومُ بحجّته، ويعبرُ عن ضميره، وإني لأستبعدُ أن يقرأ قارئٌ عربيُّ أبياته:

وعلى رأس كلِّ «جَمْعٍ» زعيمٌ
 قد تباهى في قومه وتبَخَّر
 كلِّ ما خرَّ في الجهاد شهيدٌ
 أترَع الكأس من دمائه ليسكر
 لا يُبالي أن يُستباح حماه
 أو يدوس العدو ساحتَه المعسكر^(١)

ولا يقرُّ ما قلت، فإنَّ هو كابر، وزَعَم أنَّ شمساً لا تكون وسط نهار، فليقرأ قوله:

قدائفها الخرساء ماذا أصابها
لتصمتَ والعدوانُ في القدس جائمُ

وكانت بكفِّ الحقِّ تلقى لهيِّها
فتنثر أطرافٌ وتهوي جماجمُ^(١)

فإنَّ أبت مكابرتَه إلا أن تظللَّ مكابرةً، فعليه بدواء لنفسه، فقد يُبتلى بداء ليس له من دواء.

الله الله!، وهل من مسلم على أرض الله لا يتردد في نفسه سؤال كهذا، يرى القبلة الأولى في هوان، ومُسلمونا لاهون مخدَّرون لا يعبهون، بالأمس كانت صيحةً من مظلوم تُحرِّك جيوشاً، واليوم آلاف وآلاف من أرامل ويتامى يستغيثون، أعراضُ تداس، كراماتُ تُذللُّ، أرواحُ تُزهق، فصراخ واصطراخ، ولكنَّ تجار العروبة في صمم!!.

شاعرنا - فوق هذا كلِّه -، رجلٌ أحبه أتقياء الناس حباً لم يظفر به في هذا البلد غيرُ آحاد، وما ذكَّرتُ من مآثره، ماهو إلا غيَّضُ من فيض، وقطرةٌ من بحر، وجزءٌ من كلِّ، ومثلي في هذه العجالة مع الشاعر، لا تعدو أن تكون شعاعٌ شمسٍ تسَلَّلَ من حنايا نافذة، أذكر أنني قرأت في صحيفة أردنية، يوماً، أن ندوةً شعريةً ستُعقد في المدرسة الشاملة في مدينة الزرقاء الأردنية، يُحييها شاعرنا وشاعر فاضل آخر هو الشاعر كمال رشيد، من أبناء النكبة، وفَقَّهما ربُّهما لما يحبُّ ويحبَّان، وحرصتُ أن أكون في الصف الأول، وبإلهولٍ ما رأيت، رأيتُ الحاضرين تصغي فيهم العقول والقلوب، أكثر ممَّا تصغي الأذان، رأيتُهم ودُّوا لو شقُّوا جيوب القلوب ليحتضنوه، ورأيتُهم ودُّوا لو احتضنته الأجفان لهنأ - وفي حَبَّان العيون، رأيتُ الناس مذهولين مبهورين لما يسمعون، وأما أنا، فليس

(١) ص ١٣٠.

مبالغة لو قلت إن شمر جسدي كان يقف كلما نطق، ويضطجع مستريحاً إذا سكت، سمعته يلقي أبياتاً كان منها:

فلسطيني فلسطيني فلسطيني فلسطيني
ولكن في طريق الله والايمان والدين
أهيم براية اليرموك أهوى أخت حطين
تفجر طاقتي لهباً غضوباً من براكين
لأنزع حقي المغصوب من أشداق تنين
وأرفع راية الأقصى ورب البيت يحميني

فجالت في عيني دمعتان ساختان، عملت جاهداً أن أخفيهما، ووددت لو قبلت في العيون، ووددت لو كانت نيات الناس حسنة صافية، فأحسنوا بي ظناً، لو حملته على رأسي - لو قدرت - فهو ابن اثنتين وخمسين، ولربما زاد وزنه على الثمانين، ووددت لو رقصت فيه رقصة شهامة وإباء، رقصة هيام بالصلاح والصلاح، رقصة اعتزاز بالايمان والمؤمن، رقصة فخار بقائد فكر، وثاقب نظر، وسديد رأي، وأصبح بأعلى صوتي: يا أدباء، يا شعراء، يا كتّاب، يا مثقفون، يا أحفاد قادة الاسلام الأول، صلّوا وراء هذا وأمنوا، إنني أراه أصاب كبد الحقيقة التي عنها تبحثون.

أحمد ربّي حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، أني وجدت أثر شاعرنا ومن مثله، ظاهراً لا يُجحد، وبادياً لا يخفي، أذكر في ميعة صباي أني كنت أتردد على بيت الله، فلا أجد فيه غير شيوخ أحسوا بدنو الأجل، هذا نائم، وذاك يصلي وهو جالس، وذاك تصلي بجانبه فتسمع شخيره وعيناه مفتوحتان، بلغ من الكبير عتياً، ونالت منه السنون، وفعلت به الأيام فعلتها، ولو عددت من في المسجد لما تجاوزوا الثلاثين، كنت يومها أحاول «اقناع!» والذي رحمه الله، علّه «يخفف!» عني، فلا يشترط عليّ صلاة في مسجد، فقد كان أولئك الشيوخ يرونني غريباً، وكانني في غير مكاني؛ كنت اذا وقفت في الصف الأول دفعني من فيه إلى الصف الثاني، ومن في الثاني دفعني إلى الصف الثالث وهكذا،

وحتى أصبح في الأخير، أو في الباب، وربما أصبحت في صفٍ أخيرٍ وحيداً، كانوا يشكُّون ما إذا كنتُ أعرف الطهارة أو لا، كانوا يُكثرون سؤالي عن كيفية الوضوء، وركعات الصلوات، كنتُ أشعرُ بشيءٍ من خجلٍ أو احراج، فكلُّهم كبير، وأنا الوحيد الصغير، كنتُ يومها أسائل نفسي: أين الشباب؟ وهل الصلاة فُرِضَتْ على الشيخ لا على الشباب؟ وتذكُّرتُ أسامة الذي قاد جيشاً وهو إذ ذاك في أول شبابه، تذكُّرتُ دور الخيالة واللهو عامرة، ومقاعدها محجوزة لأيامٍ تالية، وبيتُ الله يحتاج مَنْ يعمره، هكذا كانت الصورة، فانظر كيف صارت: صارت علاماتُ الخير بادية، ومؤشراتُ الايمان والهدى ظاهرة، وَعَمَرَتْ بيوتُ الله . . . وبالشباب، صرنا نرى شباباً اقتفوا سنة المصطفى عليه السلام، صرنا نرى شبابنا يتسابقون لاقتناء أمهات كتب الدين، صرنا نرى شبابنا ما أن يسمعوا: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حتى يتوافدوا بوجوه تشعُّ بالنور، كأنها أقمار، أو دنائير ذهب، وما هي إلا لحظات، حتى يكتظُّ بيتُ الله بعباد الله، ومنَّ جاء بعدها، حرص أن يكون على كتفه مصلاً، وجلس خارج المسجد محتملاً حرّاً أو برداً، فلقد بات واضحاً، ولكلِّ ذي عقل، أن لا خير في شرقٍ ولا في غرب، لا خير في اشتراكية هؤلاء، ولا في رأسمالية أولئك، ولن تعود لنا عزُّتنا إلا برفع شعار هذا الدين، الذي رضيهِ لنا ربُّنا سبحانه، فأتَمَّ علينا نعمته، ونحمده ونحمده، فبالدين تقرأ العيون، وتطمئن القلوب، ويتحقق النصر، وتُصان الأعراض.